حسن أوريد

ربيع قرطبة

رواية



حسن أوريد

ربيع قرطبة

حسن أوريد

ربيع قرطبة

رواية



الكتاب

ربيع قرطبة

تأليف

حسن أوريد

الطبعة

الثالثة، 2018

عدد الصفحات: 168

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-858-9

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

بالأمس قمت على الزهراء أندبهم
واليوم دمعي على الفيحاء هتّانُ

أحمد شوقي

بينما «السّادة» في بوابة الصمت المُملّحِ
يتلقّون الريّاحا
ليلُفّوها بأطراف العباءاتِ..
يدقّوا في ذراعيها المساميرَ...
وتبقى أنتَ
ما بين خيوط الوشْي
زِرّاً ذهبياً يتأرجحْ
وقف «الأغراب» في بوابة الصمت المُملّحْ
يُشْهرون الصّلَف الأسود في الوجه سلاحاً
ينقلون الأرضَ: أكياساً من الرملِ
وأكداساً من الظلِّ
على ظهر الجواد العربي المترنح..

أمل دنقل، «بكائية لصقر قريش»

سَوِّ الفراش يا جوذر قُبالة جبل العروس وأدِرْني في رفق كي أرنو إليه. أريد أن أنظر إلى قِممه المجلّلة بالثلج. أريد أن أحمل في ذهني صورته إلى العالم الآخر. لستُ أدري أيُقدَّر لي أن أراه ثانية أخرى... بهجة النظر هي ما تبقّى لي. لست أشعر بشيء، لا دفء ولا برد. لا حُزن ولا جذَل، لا حسرة ولا أمل. أراكَ تثقلني بالدِّثار. سيّان يا جوذر هذا الغطاء.. وأقدّر أن البرد لا يزال يرين على قرطبة، رغم براعم الشجر وزقزقة العصافير ورغم ضياء الشمس.. هو الربيع، ربيع قرطبة، ولكني لا أشعر بشيء. ما أخشاه أن يكون الشعور المستتر في وجداني هو خريف الأندلس... لست أخشى خريفي يا جوذر، فغداً سألقى الله وأخبت إليه. ربّاه، لقد حملت الأمانة وسعيت جهدي أن أوفيَها حقها، فلا تؤاخذني، ربّي، فيما لا طاقة لي به. ما أخشاه هو انطفاء هذا الوهج من نور الأندلس والذي، شهد الله، جاهدت في حمله.

لا، يا جوذر، لا أريد أن أرى أحداً. اصرفْ عني الخدم جميعَهم.. قُل لابن عامر ألّا يأتي إلّا أن يُنادى عليه.. أنا أعرف أن ما استقدمه هو زيارة الحاجب جعفر المُصحفي أول أمس،

وأن عيونه أبلغته الأمر، وأنه أراد أن يناكف غريمه. سيّان عندي يا جوذر أمرُ الحاجب جعفر والوزير ابن عامر. أعرف أن الشّقاق محتدم بينهما وقد أشرفت على الموت. كان يمكن أن يعيشا ويتعايشا ويكذب الواحد الآخر، أو يكذب ذاته وأنا على قيد الحياة، أما وأنا قاب قوسين من الرحيل، فلا مكان إلا لواحد منهما.. والذي يهمني، في نهاية المطاف، أمر الدولة، وهيبة المُلك ودوام الخلافة. ما الحاجب ولا الوزير إلا أدوات، بل أنا، أنا الخليفة، الحَكَم بن عبد الرحمن الناصر، الملقّب بالمستنصر بالله، أنا كذلك لست إلا أداة. وفيما تبقى لي من حياة أريد أن أنسلخ من هذا الدِّثار، دثار السلطان، كما انسلخت من كل إحساس. أريد في هذا الذَّماء[1] من جسدي الواهن أن أسترجع وضعي كإنسان، مع ما يعتور كل حياة من ضعف وآمال ونُجْح وخسران.. لا، لست أشعر بحنين لشيء.. نعم عرفت سؤدد المُلك وصولة السلطان. تقلّبت في المجد مثلما وقفت على ضَعة الإنسان وعاينت خِسّته ورأيت رأي العين أن كثيراً مما يُنسب إلينا من قوة وهيبة وعظمة مردّه ضعف بني البشر وسعيهم المحموم إلى المال وتذللهم للسلطان وسباقهم من أجل الجاه واسترخاصهم من أجل ذلك لكل القيم... هو ذا مصدر قوتنا.. أو قوة من يتولى أمور العباد. قوتنا من ضعف الآخرين.. و يحدث أحياناً أن نحسب القوة التي تُسبغ علينا هي منّا فنغترّ.. نعم يا فتى، لم يحمل أحد هذا الأمر إلّا اعتراه الغرور وركبته العزة،

(1) الذَّماء: بقية الروح.

إلّا أن يتولاه الله برحمة منه أو يريَه من آياته، في مسرى حياته أو خريف عمره، حين يخور الجسد، وتضعف الطاقة، ويستبدُّ الموالي وتطغى الحواشي ويعبث العابثون، أو تضيق صدور العامة فتغضب وتثور.. إذّاك ينحلُّ السدى. سدى ما نسجناه من أضاليل وما توهمناه من أباطيل.

لماذا أحدّثك بذلك يا جوذر؟ فأنت لا تفهم حديثي ولو أنك فهمت كل شيء. أدركتَ أيها الفتى الوفي أنها النهاية. رأيتُ ذلك من عينيك وهي تداري الدمع، ومن قسمات وجهك وهي تخفي الجزع.. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ يا جوذر، كما ورد في محكم التنزيل. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. لا إله إلا هو.

قواعد البيت الأموي ألّا يكون في خدمتنا إلا من اقتلعنا لسانه ومحقنا ذكورته.. هي ذي القاعدة المعتمَدة والسُّنة المتواترة، حتى لا يكون في خدمتنا سوى الصُّم، ولا يغشى أهلينا سوى الخِصيان.. هي ذي القاعدة، حتى لا تُفشى لنا أسرار ولا تلُوّث لنا أنساب.. هي ذي القاعدة التي يسهر عليها خدم شِداد.. وإن زاغ أحد فأطلق لسانه أو امتدّت عينه إلى ما ليس له، لم نتورع من إيقاع أشنع العقاب به وهو القتل، بَلْه التمثيل كي يكون عبرة.

هي الدولة، يا جوذر. أنا من لا يقوى على قتل ذبابة، أمرت بحزّ رؤوس، وألقيت بأقوام في أتون الهلاك. تيتم أطفال، وترملتْ نساء، وثُكُلت أمهات، بسبب قرار قرّرته، ورأي أبديته، وسياسة انتهجتها.. ولكني لست مَن كان يأمر، بل الخليفة...

هذه الأمانة التي ورثتها والتي بها حماية الدين، وسلامة النفس وصيانة العِرض... ويحدث، وقد خلوت إلى نفسي، أن أبكي بكاء الثكلى لقرار اتّخذته، من قائد عزلته أو قريب سجنته أو متمرد قمعته أو قتلته.. نعم، القتل جزء من هذه الوظيفة.. هي صورتها الخلفية القاتمة.. نعم، نكّلتُ بمن كانوا يخالفون أمور الدولة، ولو كنت في قرارة نفسي أرى رأيهم.. وهل ألوم من ينهض ضدّ مَظلمة أو من نُزع من حقّ ويسعى إليه؟ وما إذا كان هذا الحق يتنافى وسلطان بني أمية أو يثلم شؤون الخلافة أو يتهدد هيبة المُلك أو يغض من الخليفة؟ كنت ألبس قناع السلطان أمام الجموع فلا أبدي جزعاً ولا يبدر مني هلع وأنا أصدر أمراً خطيراً، فإذا خلوت إلى نفسي وقد خلعت قناع السلطان بكيت واعتزلت الناس لأيام..

نعم، نستعيض عن ثقل الأمانة بمُتع تنسينا ثقل الرسالة، ونسعى أن نقهر صولة الزمان، بالإسراع في البنيان، وقد يفتح الله على قلوب البعض فينفقون في سبيل الله للسائل والمُعترّ[1].. هو ما يخفف من ثقل الأمانة وجسامة الرسالة.. ثم هذا الأمل الثاوي في صدر كل ذي سلطان، أن يخصه التاريخ يوماً ما بحَسَن الذكر وجميل الأثر. ولست مستعجلاً حكم بني البشر. حُكم التاريخ أبغي، يا جوذر، لا حُكم البشر. فهؤلاء متقلبون تستبدُّ بهم الأهواء ولا يستقرون على أمر.

لا تفهم عني يا جوذر، لأنك صقلبي لا تُحسن اللسان العربي. لا تفهمُ يا جوذر هذه الشهوات التي تحرّك بني الإنسان،

(1) من به حاجة، أو مسّته مَعَرّة.

فيَغلون على أنفسهم من أجلها، لأنك حُرمت الرغبة مذ خصيت، يا جوذر.. هو ظلم فظيع يا جوذر.

تريد أن تقول شيئاً؟ الطبيب شرحبيل.. حصة التدليك.. بعدئذٍ يا جوذر.. قمتُ بما أشار به علي، وشربت الدواء، وتناولت الأعشاب التي نصحَ بها، واستسلمت له أمس وهو يربت على جسدي الواهن ويدلّك أطرافي المشلولة.. ثم استمعت إليه وهو يُبدي ويعيد في أدبه الجم: «لسوف تُعافى يا مولاي، وتستعيد صحتك، وتستهدي الأندلس وبلاد المغرب قاطبة بنورك وتتفيأ ظلك وتنعم من أياديك. نحن بنو إسرائيل فداك، أيها الخليفة الحاني، نبتهل في صلواتنا لياهو أن يحفظك ويديم أمرك ويسبل عليك أردية العافية».

أعجلته بالسؤال:

- من يدخل الجنة يا شرحبيل؟

وارتبك للسؤال..

ثم عاودته تارة أخرى:

- أيُمنع من ارتيادها غير الموسويين؟

انحنى يُقبّل يدي، ثم قال وكأنه فُتح عليه للتو:

- مولاي، جنة لا تكون فيها، لا تستحق أن تكون جنة.

ردّدتُ وأنا أنظر إلى قبة الغرفة المرصعة بالنقوش والزخارف، كما لو أني أُحدِّث أحداً آخر:

- وكذلك الأمر بالنسبة إليّ يا شرحبيل، جنة لا تكون فيها لا تستحق أن تكون جنة.

ثم ارتمى علي وهو يبكي.. انتفت كل الحواجز بيننا، حواجز الوظيفة، وحواجز العقيدة، وتبدّت لنا حقيقة الحقيقة. الحقيقة بلا زخرف ولا طقوس ولا دثار ولا تمويه. وإلّا ما الذي جعله يرتمي عليّ أنا من لا يَقربه أحد إلا بإذن، ولا يُكلمه أحد إلا من وراء حجاب؟ أدركَ أني فهمت وأن لا جدوى من العلاج.. قُل له يا جوذر إني أريده لا لكي يدلك أعضائي الواهية، بل ليقدح ذهني عن سبيل الخلاص لبني البشر كي لا يتعادوا أو يتباغضوا باسم عرق أو دين أو مذهب.. قُل له، إذْ أفرغ من حديثي، أحدّثه ويحدّثني في سبيل الخلاص لهؤلاء الذين يتعادون لغير جريرة... ذاك الذي أرتجيه من شرحبيل.. هذا الطبيب الذي لم يتعفف يوماً عن خدمة، ولم يتأفف من شفاء المُعْوزين والموسرين على السواء. لم يُفشِ سراً لأحد ولا غمس في شبهة. أريد أن أراه في الدار الآخرة، مثلك أنت أيها الخادم الودود، يا من يؤمن بالمسيح ومريم البتول وروح القدس.. أليست الحقيقة واحدة وإن تعددت السُّبل المفضية إليها؟ ولكن الناس تَعمى عن الحق وتحسب الوسيلة غاية، فتذهل إذّاك عن الحقيقة.

جوذر، أناديتَ على الفتى البربري؟ أوقدْ النار، ودعْ أوارها يضيء المكان. دفئها لن يشملني، ولكن لمعانها سيُفعم خاطري...

نادِ عليه إذاً، فلم يبقَ لي من حطام الدنيا إلا بعض الذكريات. وليس لي من سند إلّا أنت يا جوذر وهذا الفتى زيري الذي اصطنعته كي ينقل شهادتي.. لو علمَ ابن عامر من أمره ما

أهيئه لقتله، ولذلك لا أريد أن يأتي ابن عامر ها هنا أو يطوف ظله ولا أي واحد من رجالات الدولة.

ها أنا ذا أمام حقيقتي ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، صدق الله العظيم.

***

زيري، على رسلك، فلقد طاف بي حَمام الموت قبل هنيهة واستشففتُ أنه لن يأخذ روحي حتى أتمّ هذا الحديث.. أصخْ إلى حديثي أيها الفتى ودعه ينطبع في فؤادك، و يوماً ما انقلْه إلى طرف القلم.. انقله كما انطبع في نفسك. دعه يختمر في ذهنك. لا تعجّل به.. خذ من حديثي عصارته. خذ روحه.. لا تنقله إلى أن يكتمل عقلك فتعرفَ من ضروب الحياة أسرارها. اجعله حديثك بعد أن تكون قد تقلبت في مهامه الحياة واغترفت من حياضها وسلكت مِهادها وسبرت أغوارها واستخلصت عصارتها...

أنا الحَكم بن عبد الرحمن بن هشام.

أنا الحكم ثاني خلفاء بني أمية، منذ أعلن والدي عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة وقد التاث[1] أمر الخلافة في بغداد.

أنا من بيت السؤدد والفخار...

درجت منذ نعومة أظافري على سؤدد بني أمية، وحفظت وأنا حَدَثٌ قول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

(1) التاث: انحل.

على ذلك درجت وبه آمنت. ولكني أدركت يافعاً شيئاً آخر قلّما يُفصَح به في جنبات القصر، أو يجري الحديث عنه. شيء وقر في ذهني مذ كنت صبياً. أمرٌ تغلغل في وجداني وسكن فؤادي ونفذ في وجدان كل ساكني القصر وأمراء بني أمية، ولو أنه لا يَرد في خطاب أو يتردد في نجوى، وهو أننا لا نعيش إلا بحدّ السيف، وقد ننتهي بحدّ السيف... ستٌّ أو سبعٌ كان سني، حينما تمرّد عمّاي على والدي، ووالاهما فريق من الجُند، وألّبا طغام[1] الرَّبض، فغَشوا القصر، وعاثوا فيه الفساد... أحرقوا ونكّلوا وقتلوا ومثّلوا... رأيت الموت وأنا صبي رأي العين. لا يزال لهيب النار عالقاً بذهني، وما تزال صورة زينب أختي، ولما تتجاوز الثانية من عمرها، ماثلةً أمام عيني وقد صرختْ حين دخل جندي غرفتنا شاهراً سيفه. أمسكها وألقى بها فارتطم رأسها على الحائط، وكفّت عن الصراخ. لم أصرخ للذهول الذي أصابني، بل بدا لي الأمر كما لو أنّه هزل وأن زينب لن تلبث أن تنهض. استمسكتُ بطرف من ستائر النافذة، فاختبأتُ وراءها أرمق الجندي كما لو أنه أزاح حاجزاً بإلقائه بزينب على الحائط، ثم ارتمى بعدها على بعض الحُلي والأثاث يحوشها.. رمقني ورمق أناملي تستمسك بثوب السدائل، ولم يهمه قتلي طالما لم أُبْدِ عداء أو يبدر مني صراخ يفضحه فيثيرَ ضَغَنه أو يستثيرَ خوفه... حمل بعض التحف، ثم التفت نحوي كما لو هو يُعبِّر عن إثابته لي، وانفتل خارج الغرفة... زينب لا تتحرك ولا تبكي ولا تصرخ... كانت ملقاة على الأرض، وعيناها مُفتحتان، وثغرها كذلك، كما لو هي نائمة بعينين مفتحتين.

---

(1) الطغام: العامة من الناس.

وبقِيت مُسمّراً في مكاني حين فاجأتني امرأة من الخدم وهي ملتاعة تغشى الغرفة. أمسكتْ يدي ثم نفرت بي خارج الغرفة تعدو. همستُ كي أذكّرها أمراً ذهلتْ عنه:

- زينب؟

ألقت بنظرة غائمة على زينب وهي مستلقية، وخرجت بي مسرعة كما لو أن أمر زينب لا يستثيرها.

ثم أخذت تُسرع في سراديب ودهاليز لا يعرفها إلا أصحاب القصر... رفعتُ رأسي نحوها كمن يُذكّرها أمراً تارة أخرى:

- زينب؟

ولكنها كانت ذاهلة عني إلى أن انتهت بي إلى قبو. هنالك ألفيت بعضاً من نسوة القصر. ما أن رأينني حتى أخذن يُقبّلن يدي ورأسي...

لم يكن لأموت لأن لو مات الخليفة عبد الرحمن الناصر ومت، انقطع حبل الخلافة. لم تكن النساء تعلمن شيئاً من أمر الخليفة أهو حي أم ميت. كان في جناحه حين اقتحم الجندُ المتمردُ القصر. حين أعجله ومجالسيه سيل التمرد.. لئن مات، فلم يكن لأموت. أما زينب، فلم تكن لتحمل الأمانة، وسيّان لو ماتت...

كنّ يفكرن في الخليفة، وكنت أفكر في أبي.. كنّ يفكرن في دوام الخلافة، وكنت أفكر في أختي. سألت بلوعة: «هل سيقتلون أبي؟». ردّدن: أنت اليوم أبونا. سألت هل ستستفيق زينب. أجبن: زينب تخلد للراحة...

كل أسرة حاكمة تحتاج إلى جند يحميها وأصحاب قلم يدافعون عنها، ولكنها محتاجة إلى هذا وذاك، إلى بطانة تحفظ

قواعدها وتصون أسرارها... لم تكن تلك النسوة على شيء من المعرفة، أو حظّ من العلم، ولكنّهن كنّ يدركن قواعد الحكم ويعرفن رموزه ويحفظن أسراره ويحافظن من أجل ذلك على طقوسه... أدركن أن البحر هاج، بحر التمرد والغيلة والتشوف للسلطان، وإذ يهيج ينبغي أول ما ينبغي الحفاظ على قائد السفينة أو الرايس، ووجهتها أو الإسطرلاب.

وكنت الإسطرلاب، والخليفة الرايس.

تناهت إلينا لعلعة السيوف، وجلبة العراك في جنبات القصر وأفنائه...

المثير هو رباطة جأش تلك النسوة... كنّ يُصخن السمع، ويقطعن الصمت بترجيع جميل من الرجز، وددت أنّي حفظته، يتوسلن فيه إلى الباري أن يُسبل ألطافه الخفية على بيت بني أمية.. إلى أن انتهى إلينا من ساحة القصر هتاف يرتفع بحياة الخليفة عبد الرحمن الناصر.. «العز والصولة لمولانا الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، دام عزه وسناه»، وأطلقت النسوة زغاريدهنّ... ثم أمسكتني امرأة مسنة من يدي وأسرعت بي إلى جناح الخليفة... نظرتُ إليها كما نظرت إلى الأولى:

- زينب..

- ستبارك أولاً للخليفة سلامته.

وحملتني إلى جناح الخليفة من قصر قرطبة. انتظرت إلى أن أشار عليّ فتى بالدخول بعد أن استأذن الخليفة. أسلمتني الوصيفة إلى الفتى. كان الخليفة على سرير الملك جالساً لا يبدر منه جزع ولا يبدو منه هلع، وعن يمينه وشماله رجالات الدولة. أشار الفتى

عليّ بتقبيل الأرض أمام الخليفة ففعلت. نظر إلي الخليفة بنظر جامد، ثم أرسل أمراً في اتجاه الحاجب:

- غداً ستقام صلاة الجنازة على زينب ويرأس مراسمها ولي العهد، ويوم الجمعة تخرج سُدّتنا العالية لصلاة الجمعة.

ثم غيّر نظره في اتجاه صاحب الجند.

كنت في حالة من الذهول كي أدرك ما نطق به الخليفة. ما أن انتهى من مقالته حتى سحبني الفتى وأسلمني للقهرمانة التي استسلمت للنشيج. كانت تبكي زينب. كانت مدركة لكل شيء، مدركة أن زينب فارقت الحياة، ولم يكن لها أن تُسرّ بذلك أو تُقرّ به قبل أن يُعلنه الخليفة... رفعتُ رأسي نحوها وسألت:

- زينب؟

فردّت:

- إلى رحمة الله، البركة فيك يا مولاي...

وأخذتني إلى رواق أمي. وتناهى إلي ترتيل القرآن. كان المأتَم. كانت أمي متشحة بالبياض، محاطة بنجياتها وصفياتها. أما الوصيفات فكنّ يُرجعن ترجيعاً حزيناً. حملتني الوصيفة إلى أمي. كانت موتورة. استلقيت في حضنها، وامتزج بكاؤها ببكائي. احتضنتني احتضاناً قوياً وهي تقول بالرومانية:

- ذهبت زينب.. ذهبت إلى غير رجعة... حَنانَيك يا مريم العذراء.

لم يكن لتحزن إلا بلسانها. ولم تكن لتجد العزاء إلا في دين آبائها. ولم يكن أحد، في ذلك الظرف، أن يؤاخذها على ذلك.

وارتفع ترجيع النساء ممتزجاً بتلاوة القرآن يرتله الحفظة من بيت الخلافة.

انحنت وصيفة على أمي وهمست لها بشيء. أرسلت أمي نظرة غائمة، فأخذت النسوة تنسحبن إلى الفناء.. ولم يبقَ إلا بعض من صفيات والدتي ونجياتها. وعنَّ الخليفة إثرها من غير حاشية. وقفت النساء ثم قبّلن الأرض. أما أمي فلم تقوَ على القيام. لم يكن الخليفة نفس الشخص. كشخص بدّل لباسه. انحنى على أمي وقبّل رأسها، ثم احتضنني بقوة واستسلم للبكاء. كان أبي. كان الإنسان. وقبله كان الخليفة..

كان أوَّل درس لي في هذا اللقب الذي كنت أحمله، ولي العهد، ولهذا الأمانة التي سوف أتقلدها، خليفة المسلمين، أن أعيش حياتين، وأدبّر أمرين متضاربين في نفسي، وأتعايش مع هذا التمزق طوال عمري.. وعشته طوال عمري، حتى هذه اللحظة التي لا أريد أن أحاط فيها إلا بمن أحب، خادمي الوفي الفتى جوذر، وصاحب الخدمة فائق، وطبيبي شرحبيل، وأنت أيها الكاتب، أنت يا زيري...

مُدَّ السماط للعشاء، وتناول الخليفة الطعام في جناح أمي مِن مائدة جمعتنا ثلاثتنا، ووصيفات لأمي قُربنا. ككل أسرة مكلومة. ككل نفس موتورة. كأب يشاطر زوجه بَثّها ويحمل عنها بعضاً من رزئها. ثم نهض الخليفة، وأقبل الخدم يُقبّلون يده بعفوية. لم تكن تلك الطقوسَ الصارمة التي يسهر عليها الحاجب ولا فتيان القصر.

وعند الغد، أقيمت صلاة الجنازة على زينب في مسجد بداخل القصر، ثم خرجت جموع رجالات الدولة والحشم والخدم

والمتطفلين والصادقين، وأنا أتقدمهم إلى تُربة بني أمية بداخل القصر.. كانت الوصيفة التي حملتني للخليفة توصيني أن أبقى رابطاً للجأش وأن لا أرسل دموعي... تماسكتُ ما وسعني ذلك، حتى إذا أودع جثمان زينب الثرى وأهيل عليها التراب، استسلمتُ للنشيج... كنت أبكي أختي. أختي الصغيرة التي اعتلقتْ رطانتها الأولى بطفولتي وبراءتها بوجداني. كنت أبكي نفسي، لأنها جزء مني. كنت أبكي وضعي، لأنها بنت الخليفة ولقيت حتفها لأنها بنت الخليفة وكان يمكن أن أُقتل معها، أو أُقتل يوماً ما لأني ابن الخليفة. كنت أبكي عجزي لأني لم أصدّ عنها الموت. كان يهون علي أن أموت يومها.. لم يؤاخذني أحد على بكائي.. تفهّمَ الخليفة الأمر وقد أُخْبِر بدقائق مراسم الجنازة، بمن حضر من رجالات الدولة، وعدد من حضر، والسُّوَر التي تليت والدعاء الذي رُفع. اكتفى بالقول وقد قصدتُ جناحه عقب صلاة الجنازة لأسَلّم عليه:

- ابذل وُسعك أن لا تُظهر جزعك المرة المقبلة أمام الملأ يا حَكم.

ويوم الجمعة الذي أعقب التمرد أقيمت الصلاة بالجامع الكبير بجامع غرناطة العامر.

احتشدت الجموع من القصر إلى الجامع منذ الضحى، ورُفعت الأعلام والبيارق، كما لو هو عيد... وقبيل الصلاة، خرج الخليفة من القصر، في أحسن شارة، وهو يمتطي جواداً أبيض، ورجالات الدولة تمشي من حوله، مُحاطاً بحُراس القصر، وأنا عن يمينه.. كانت الهتافات تتردد بحياة الخليفة، مشفوعة بالتكبير والتسبيح والحمدلة. كان الخليفة منشرحاً. دخلنا الجامع من بابه

الكبير وارتفع التكبير والحمدلة، والخليفة يحيّي برأسه تعبيراً عن الرضى والحبور إلى أن بلغ مقصورته.

ما أن اعتدل الخليفة في جلسته، حتى أخذت الجموع بداخل المسجد تتلو سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. نحن أهل المغرب والأندلس، كما تعلم، اعتدنا أن نرتل القرآن جماعة، على خلاف أهل المشرق الذين يتلونه فرادى. واعتلى قاضي قرطبة المنبر... لم أتذكر شيئاً من خطبته، ولكني فيما سوف أعرف من أمور الدولة، كانت خطبة موجَّهة... الحمد والثناء، والأسرار الربّانية والألطاف الخفية التي قطعت دابر المتآمرين، والضرب على أيدي من يفسدون في الأرض ولا يصلحون... تعابير منمّطة تتردد غداة كل تمرد... لسوف أفهم بعدها أن للتمرد أسباباً وجيهة، وأنه لا يمكن أن يُختزل في تعابير «المفسدين في الأرض»... تثور الدهماء لأن الضُّر أعياها والظلم برّح لها، وتتمرد العِلية لأنها تسعى للسؤدد وتشرئبّ للجاه، وتحرص على الحفاظ على مصالحها أو تدرأ من يتهدد شؤونها.. ولو قُدّر للمتمردين أن يبلغوا مرادهم لتحولت خطب الخطباء من «المفسدين» إلى المُنجّين البَرَرة.

كل من يتولى شؤون العباد يعرف كذب الحاشية ونفاقها، ومع ذلك فهو محتاج إليها وإلى نفاقها. محتاج إلى هذه البطانة التي تشيع فيه الدفء. دفء السلطان وزهوه وغروره... يتوزع كل من يتولى أمور العباد، بين شعور الحاجة إلى هؤلاء، والازدراء لهم، لأنه يعرف في قرارة نفسه أنهم لا يَدينون لشخصه بل للقبه، وأنهم قد يتحولون عنه إذا ما ذهب الأمر عنه.. كل من يتولى شؤون العباد يعرف ذلك ويُقْدم، من غير جريرة، بين حين وآخر، على فعل

أبتر، عَزل كبير وتجريد آخر من ممتلكاته، و نفي ثالث، أو تقريب خامل مغمور ورفعه إلى أعلى علّيين... لا ينبغي للعامة أن تستأنس لقواعد قارّة أو أن تُحسن قراءة الوضع وتستشف المستقبل... وحتى الخاصة عليها أن تبقى في وضع الترقب ولا تستأنس بشيء.

ما أن فرغ الخليفة من الصلاة، حتى عاد من ذات السبيل وسط الهتافات وهو يرد بيديه، ويومئ برأسه إلى أن دخل القصر... علقت تلك الأحداث بذهني فلم تفارقه قط.. علقت به لأني كنت أمام أول تمرين أجتازه في هذا اللقب الذي أحمله، ولي العهد، والرسالة التي تنتظرني، خليفة المسلمين... نُزِعْتُ من طفولتي مذ قُتِلتْ زينب. هتفَ وصيف ونحن في ردهة القصر:

- ليتقدم ولي العهد إلى السدة العالية بالله، خليفة المسلمين..

أمسكني فتى من يدي، وأخذ يعدو بي إلى أن مثلت أمام الخليفة فأرسل بتؤدة نحو قائد الجند:

- سيقام الحدّ على المتمردين غداً في الساحة الكبرى قرب المسجد الأعظم.

ثم استدار نحوي في هدوء:

- وسترأس يا حَكَم مراسم إقامة الحدّ على المتمردين مع قائد الجند.

قبّل قائد الجند الأرض ودفعني الوصيف الذي كان ممسكاً بيدي أن أفعل ذات الشيء... كنت أود أن أقول شيئاً لهذا الرجل الذي هو أبي كما قد يفصح كل طفل لأبيه. ألم يكن هو من احتضنني في جناح والدتي وبكي لبكائي، ولكنه لم يكن نفس

الشخص. رجالات الدولة المتحلقون حوله، الجنود المحيطون به، بسيوفهم ورماحهم وأسنّتهم، لباس الأبهة الذي يتشح به، كل ذلك أحاله شخصاً آخر. كنت أريد أن أقول له: لا أريد، أبتاه. لا أقوى على منظر الدم وحزّ الرؤوس. ولكن الشخص الماثل أمامي لم يكن أبي، بل الخليفة. الخليفة الذي يريد أن يُلقي في رَوْع الناس استمرارية الدولة في شخصي. الخليفة الذي يُسلّمني المشعل، ويقود خطاي في سراديب الحكم، ويُعلّمني أسرار المهنة... هو نفسه عاش تجربة مماثلة في صباه. ألم يُقتل أبوه من قِبل عمه وهو طفل، وهيّأه جده للرسالة وأخذ نفسه على ذلك؟ حُرم عبد الرحمن من الطفولة ومن الأبوة ليتهيأ لأمر الخلافة...

ينبغي أن أحدّثك عن عبد الرحمن الناصر، بل ينبغي أن أحدثك عن عبد الرحمن الداخل. ظِلُّ هذين الرجلين يحجبني، ولكن دمهما الساري في عروقي يملؤني زهواً وفرَقا في آن... الزهو للانتماء إلى فصيلة الماهدين، والفَرَق أن لا أضاهيها أو أن أزري برسالتيها.

ينبغي أن أحدّثك عنهما، ولكن دَعني أكملْ الحديث عن مراسم إقامة الحدّ.

لم يكن لي أن أتنصل عن ذلك، وكان الخليفة يدرك ذلك، ولذلك هيّأ كل شيء. يوم إقامة الحدّ، انبرت القهرمانة من وراء الجموع، وأمسكتني بقوة من يدي، ثم انفلتت بي بسرعة نحو باب موارب مع قائد الجند. نظرتُ إليها ثم همستُ:

- قمر، لا أريد.

- مولاي، لا بدَّ مما ليس منه بدّ. هي أوامر الخليفة، وهو

أدرى بأمور الدولة وأنت ولي عهده.

أخذتني إلى باب القصر المفضي إلى الساحة الكبرى وقائد الجند يتقدمنا. كنت أعرف عطفه علي. عند الباب، أرسلت الوصيفة على أثَري:

- مولاي، الجموع تنظر إليك، وترى فيك صورة الخليفة.

قبّلتني على رأسي ثم توارت. نظر إلي قائد الجند ثم أرسل مشيراً إلي بالتقدم:

- على إثركم يا مولاي.

قلت وَجِلاً:

- لا أريد.

ردّ ببرودة:

- هي الأوامر، يا مولاي، هم من قتل الأميرة زينب.

عرفَ الخليفة حداثة سني ورقّة فؤادي، وعهد من أجل ذلك بالوصيفة أن ترافقني، ولقائد الجند أن يستنجد بذكرى زينب كي يستثيرني، ولكني لم أكن في وضع من يريد الثأر... ووجدتُني فجأة وسط الجموع، في الساحة الكبرى... قرأ قاضي المدينة صكّاً يُذكّر فيه حكم المفسدين في الأرض. كان المحكومون محتبين وأيديهم مُكبّلة، ومن ورائهم القاضي، وعلى رؤوسهم كان يقف السيّاف شاهراً سيفه. نظرت إلى وجوههم فلم أجد قاتل زينب. لم يبدر من المحكومين الجزع. همست إلى قائد الجند:

- أرجوك، لا أريد.

ولكنه تحوّل هو نفسه إلى شخص آخر:

- هي الأوامر يا مولاي.

حينما أنهى القاضي مقالته، رفع أحد المتمردين عقيرته محدّثاً إياي:

- يا حَكَم، لسوف نلقى الله بعد حين، اذكرْ يا حكم أننا ما ثُرنا إلا نصرة للحق وانتصاراً للضعفاء... وسنلقى الله راضين، مَرضيين إن شاء الله.

دفعه جندي بركبته.. وأغمضتُ عينَي. لم أفتحهما إلى أن سمعت نداء «الله أكبر» يتردد، ونظرت فألفيت رأساً مدحرجاً على الأرض..

وتوالى ذات الأمر على الآخرين.

منذ ذلك الوقت، أدركت أني مختلف عمن حولي.. كنت موتوراً لفقد أختي، وأضحيت موتوراً لفقد طفولتي. وكان ذلك ما يريده الخليفة.. كنت كمن بُتر منه عضو. كانت الحاشية تدرك ذلك، وتتعامل معي كمن تعرّضَ لبتر إلى أن يبرأ من جرحه.

ولكني لم أبرأ من جرحي. ينزّ دوماً من نفسي. أبكي زينب، وأبكي طفولتي التي بترها السيّاف من الرؤوس التي حزّها..

كبُرتُ وأشباح تتهددني، شبح المتمردين والطامعين بالسلطان والمتآمرين من الأعوان والمتربصين من الأعداء. وتربيتُ على شبح ابن حفصون، مَن تمرد مِن داخل بيت الخلافة، وكان دعامة لها. تمرد وعانق دعوة الشيعة، وتحول لفترة للمسيحية إلى أن أعياه المرض. كان شبحاً يخيفني، وأضحيت أخيف به. سوف أسرّ لك بكل شيء.

***

أدركت منذ نعومة أظفاري أني مُطوّق بأمر جسيم، وكان لزاماً أن أُهيَّأ للاضطلاع بهذا الأمر العظيم من خلال ملازمة الخليفة، والوقوف على أموره والانطباع بأخلاقه والتأثر بسلوكه ومعرفة رجالات الدولة والاحتكاك بهم.. و كان علي، إلى جانب ذلك كله، أن أتلقى تعليماً يُسعفني على حمل الأمانة العظمى. كان عليّ أن أملك ناصية **لسان العرب**، وأتكلم العربية سهواً ورهواً، بلا لحن، فحذقت قواعد النحو والصرف، ودرست البلاغة والبيان، وعرفت تاريخ العرب وأيامَهم وأخلاقهم ومروءتهم.. وكان علي قبلها أن أحفظ القرآن الكريم، وسيرة النبي الكريم. تشبّعت بأخلاق الإسلام. واختار لي الخليفة عبد الرحمن الناصر، أكرم الله مثواه، نُخبة من الكُتّاب والأدباء والفقهاء يعلمونني اللغة والشعر والأدب والأمثال، فضلاً عن الفقه والأصول.. فدرست، ولمّا يشتدَّ عودي، المذهب المالكي. حفظت **موطأ** الإمام مالك ومتن ابن زيد القيرواني... وكان يلزمني إلى ذلك أن أعرف شؤون الشعوب المحيطة بنا أو التي تعيش معنا. عرفت شؤون القوط وألممت بلسانهم ولم يكن ذلك بعسير علي، لأن والدتي كانت قوطية، تغمدها الله بواسع رحمته، مثلما عرفت بعضاً من شؤون

البربر، وأخلاقهم وطباعهم، وإن لم ينطع لي لسانهم.. وكانت الغالبية من قبائل زناتة سنداً لنا ودعامة.. كان الخليفة قد اختار لي مؤدباً هو عثمان بن نصر يسهر على تنشئتي، ويراقب أساتيذي، ويُطلع الخليفة على أموري..

واختار لي الخليفة ثُلّة من الطلبة يلازمونني. كانوا يأتون من مشارب عدة. كان منهم من كانوا من أبناء رجالات الدولة، وآخرين من أبناء العامة، ممن تفوقوا في الدراسة، وظهرت عليهم مخايل الذكاء.. كان ينبغي أن أدْرج في محيط يشحذ همتي، ويُقوّي عَزمتي من دون أن يُثبّط هِمّتي.. وكيف يا تُرى أن أعبّر عن ذلك؟

كان ينبغي أن أنشأ في محيط يستحثني، ولكن دون أن يحجبني.. كنت أميراً، سليل أسرة عريقة، كريمة المَحْتِد، تقلّبتْ في مدارج المجد، اختارتني العناية الربانية أن أكون من يحمل الأمانة العظمى. كنت واعياً بذلك، مثلما كان كل شيء من حولي يُرسّخ ذاك الشعور ويشحذ ذلك الوعي: الخدم والحشم والمرافقون وسلوكهم وتوددهم وتزلفهم، فكيف أقبل آنذاك، وقد اختارتني الألطاف الخفية، مَن قد يفوقني ذكاء وعلماً، ولم يكن هناك من يفوقني جاهاً ومالاً...

قد تسكن الغَيرة قلوب الناس جميعَهم، وقد تكون حافزاً لبعضهم، أو ناراً تأكل قلوبهم، وتدفعهم لأعمال الشر، ولكنها أشد وطأة في قلوب الأمراء وسليلي الأسر الأثيلة.. تلظيت بهذا الشعور ممن فاقني ذكاء ورجاحة عقل.. لست أكتم الأمر وأنا على أهبة الرحيل. لست أخفي الأمر وقد ائتمنتك لكي تخُطّ حقيقتي وتُنبئ عن سريرتي..

كل الذين لازموني في الدراسة تبددوا ولم يثبت منهم أحد أو يكاد.. كانوا كالعصا التي تُثبت الغرس إلى أن يستقيم، فإذا اشتد عوده ألقي بها.. تبخروا جُلّهم. منهم من استهوته الدنيا ومُتعُها من أبناء العلية، ومنهم من لازمه زيف السلطة وبريقها، فسعى أن يحافظ على طقوسها من دون حقيقتها، ومنهم من نأى وتناءى.. كان منهم من أمر لهم الخليفة عبد الرحمن بجراية يتبلّغون[1] بها جزاء وفاقاً على مرافقتهم إياي، وأجزلت لهم العطاء لمّا وُلّيت أمور الخلافة.. ولا يزال بعضهم يلحُّ أن يحضر مراسم العيدين، حفظاً للصلة، وصوناً لوضعهم وإبقاء لحظوتهم. كنت أنظر إليهم من مجلسي بالزهراء حين أُبلّغ بزيارتهم بكثير من الإشفاق، وشيء من الازدراء..

آه، لو كانوا يعلمون. كم يسعى الإنسان إلى الذل سعياً حثيثاً ويحسبه سؤدداً.. تُرى لو كان كل الناس يعقلون، أكانت ستَدين لنا الرقاب؟

وكان شخصان يتوقدان ذكاء مِن رفاقي ممن لازموني شرْخ الصبا وشطراً من فترة الشباب.. أما الأول فهو يحيى بن گنون. لم يكن من الأمر في شيء. لم يكن من علية القوم، ولكنه كان يتحدر من قوم ذوي بأس من عَدوة المغرب، أدبر سلطانهم، ولم يمّحِ مجدهم. كان گنون يحمل ذلك في وجدانه. يحمله من خلال سمْته ومن خلال صمته.·لم يكن يخوض فيما يخوض فيه أترابنا من لهو ولغو.. كان يخشع للقرآن، ولسيرة الرسول، ولآله الأطهار... كان يحمل جرثومة حسبنا أنّا استأصلناها من بلاد المغرب، وهي التعلق بآل البيت. كان لا يبيّن عن ذلك، ولكن سره لم يكن ليخفى

(1) تبلّغ: ما يعيش به المرء من الكفاف، دون أن يفضل.

على رجالات الدولة.. كان يحيى بن گنون أحسننا علماً بأمور الشريعة، وأكثرنا تفقهاً في أمور الدين، وأبعدنا عن اللهو وأشدّنا نأياً عن العبث، لم يكن يخوض فيما يخوضه أترابنا. أذكر تأدبه معي، ولكنه تأدب من غير تزلف. كان سني السادسة عشرة حين نادى علي الخليفة بمحضر من المؤدب نصر بن عثمان، ونهره نهراً خلت أنه سيقطع رأسه.. قال له مما أذكره:

- ألم تجدوا من تجعلوه مع ولي عهد المسلمين سوى من يحمل حسيفة الروافض من الشيعة؟

لم يكن گنون شيعياً، ولكن حبّ آل البيت غلب عليه أمره وملأ قلبه.

وقبّل المؤدّب الأرض، واستجدى عفو الخليفة، ثم ظل جاثياً على الأرض، وقد غادر الخليفة، حتى احتمله وصيف وقد غادرت الحاشية الديوان.

فُصل يحيى بن گنون من الدراسة معي، ونما إليّ بعدها أن أسرته التحقت بعُدوة بلاد المغرب الأقصى... خلته اندثر، مثلما خُيّل للخليفة ولرجالات الدولة ممن أبلغوا الخليفة الأمر، وأحاطوه بالخطر، أن صفحته طويت. حُق أن يُجتث ولمّا يستفحلْ.. ولكن خطر يحيى بن گنون لم يُجتث، وسيأخذ مني طاقتي، ويستأثر بجهدي بعد إذ وليت أمور المسلمين..

لكَم أتعبني بعدها ابن گنون. ولسوف أحكي لك بعضاً مما أرّقني به. نعم، واجهته بالعداء بعدها، وشننت عليه الحرب، لأن لم يكن من الحرب مناص.

وأما الثاني، فلم يؤذني في شيء، ولم يَشنَّ علي حرباً،

وكنت أنا من شنّ عليه الحرب وكنت من آذاه وأسرفت في ذلك. كان في صمته يُذكّر بگنون، ولكنه يختلف عنه لأنه لم يكن يؤمن بشيء مما كان يؤمن به گنون.. لم يكن يعتبر العرب مختصين بشيء عن العالمين، ولا يميز بين اليهود والمسيحيين والمسلمين، ولا بين المؤمنين واللاأدريين.. كان من أصل قوطي، أسلمتْ أسرته ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم.. كان ذلك حال الكثيرين، ولم تكن دولتنا لتتأذى منهم ما داموا يَدينون لنا بالولاء ويقدّمون فروض الطاعة... لم نكن نعير أهمية لشؤونهم العقدية ما داموا في خدمتنا.. كان باشكوال، من هؤلاء.. كان نبتاً من تلك التُّربة، وكان صاحب ذكاء خارق وثقافة واسعة.. يبزّنا جميعاً في كل ما كنا ندرسه، في اللغة والآداب، بل حتى في شؤون الفقه والأصول وأمور الدين ولا يجاريه فيها إلا يحيى بن گنون.. لم أكن الوحيد ممن يعتصر قلبه غيرة من ذكاء باشكوال، بل كان ذلك شأن رفاقي جميعهم. لم يكونوا ليقبلون أن يتقدمنا واحد من الموالي ويتفوق علينا جميعاً. أوغر ذلك صدري، مثلما أوغر صدور زملائي.. لم يصدر عن باشكوال ما يؤذي أحداً منا. لم يَمشِ بنميمة أو يغتبْ أحداً... ولكننا كرهناه لتميزه وتفوقه. كانت إرادة الخليفة أن يلازمني لذكائه وتوقد ذهنه. كنت أفعل اضطراراً.

ينبغي أن أقول لك شيئاً لعلّي إذ أبثّك إياه أن أتخلص من إصْر لطالما قضّ مضجعي، ولكن هيهات.. آذيت باشكوال، آذيته من خلال إعراضي عنه، ومن خلال تأليبي لزملائي ضدّه، وأذيته حين أبلغت الخليفة بزُور القول عنه، فأطلقت بذلك لسان الحاشية

عليه، ورسمته في صورة الناقم الحاقد، ووظفت من أجل ذلك تحفظه وميله للصمت والانطواء...

كان المؤدّبُ عثمان بن نصر، إذ يذهب للخليفة ليطلعه على سير دراستنا، يُبلغه بشؤوني، ويسأله الخليفة إن كان من أترابي من يتقدمني، ويجيبه المؤدب دوماً بباشكوال... ونادى علي الخليفة يوماً ونهرني: ولم لا تكون مثل باشكوال، بل أحسن من باشكوال؟ وما يميّز باشكوال؟ عيّرني الخليفة بذلك أمام الملأ. كان يريد أن يثير حميتي ويستحث همتي، ولكنه أوقد نار الغيرة في نفسي، بل أوقد ضرام الحقد فيها.. نعم، حقدت على باشكوال بعدها كما لو هو من عيّرني ومن سلبني لباس تفردي أمام حاشية الخليفة، وجرّدني من سؤددي ونزعني من وضعي. ملأتني الغيرة فطمست بصيرتي، ولكني لم أُبِن، أو تركت الزمن يفعل فعله حتى أثأر من باشكوال.

هل من المهم أن أقف عند ذلك يا زيري؟ كنت أريدك في شأن آخر، ولكن للحديث مساربه، كما للماء، لا يمكن أن نقف في مساره أو أن نتحكم في مآلاته.. هل يمكن أن نميز بين ما يرتبط بحياة الناس الخاصة، وبين أسلوبهم في تدبير شؤون العباد؟ لا يا زيري، والطفولة هي المَعين الذي يفيد في فهم ما يعتور نفوس الرجال والنساء حين يبلغون سن الحِلم. هي المتحكم في نفوس الحكام، ولا أعرف أحداً بريء مما اعتلج في الطفولة، وإن استطاع التستر عنه وإخفاءه.

حاولت في خريف عمري أن أصلح ذات البين مع باشكوال، وبعثت له واحداً من زملاء الدراسة، من أصبح حاجبي، جعفر بن عثمان.. وهل يستقيم هذا الحديث من دون جعفر؟ هو من كان عضدي لما كنت ولياً للعهد، ومن أصبح يدي اليمنى لما توليت هذا الأمر. درس جعفر معي، ولم يكن على شيء يتميز به، بل لم يكن التحصيل شاغلَه. همّه أن يترضّاني. كان جعفر موضع ثقتي. أدركت لأول وهلة أن سيخلص لي، فليس له سؤدد أسرة عريقة، وليس له مال، ولا هو صاحب نباهة. ليس له إلا ما عُلّم من أبيه، وفي كثير مما عُلم منه، الخضوع والتذلل والدهاء، وهي أدوات العمل في القصور. كان باشكوال، وقد بعثت له بجعفر، قد اعتزل الشؤون العامة في لوتشة، وغار في دراسة التراث الإغريقي واللاتيني.

على رسلك. لسوف أحدثك عن باشكوال. كم من الأحداث الجسام لا يمكن أن يُستجلى سرها من دون الوقوف على صغار أمورها، وكم من أشياء صغيرة تتناسل وتعظم، نستخف بها إذ تقع، ولا ندرك خطورتها إلا بعد فوات الأوان وقد أُصبنا بالعجز. العجز عجزان، التفريط في الأمر وقد أمكن، والسعي وراءه وقد فات... وهي حكمة تعلمتها من باشكوال. ليس عجزَ الجسد أشكو يا زيري، بل عجز العزيمة. لم أعد مالكاً لشيء سوى الرجاء. ولعلّ هذا البَوْح أن يضمِّد الجراح.

***

كنت في شرْخ شبابي مولَّعاً بالقنص. كنت أخرج إلى أرباض قرطبة من باب القنطرة، وأوغل أنا وصاحباي، جعفر وباشكوال، في الغالب، حتى جبل العروس، لقنص الطير والظباء والوحش. كنت أجيد الرمي بالسهم، وكنت مضرب الأمثال في دقة التصويب.. لعلّ ما كان يخفف غيرتي من باشكوال أنه لم يكن يُعنى بالصيد ولا يجيد الرماية.. كنت أصطحبه وأهزأ منه. كان يبادرني دوماً بابتسامة.. ليس عن بشاكوال أريد أن أحدثك يا زيري، ولكن عن شيء آخر طبع حياتي ووقر في نفسي.. كنت وقد خرجت من القصر على دابتي، من فرس عربية، حين التقت عيناي بالرصيف الأعظم على ضفة النهر، بفتاة وهي تنظر إلى مُصارة[1] الخيل وهي تُروَّض. رمقتني بعينيها السوداوين، كأنما هي عينا ريم... كأن سهماً أصابني.. أتممت المسير ولكن ذهني لم يثبت لشيء. لم أستطع أن أدير وجهي كي أتثبت من الفتاة، ولا أن أدير راحلتي، كي لا أثير شكوك مُرافقيّ.. ظللتُ أخُبُّ على صهوة الفرس، كمن نفذ سهم في فؤاده، يكابد ألمه في صمت... لم أجرؤ أن أُحدّث

(1) مصارة: ساحة تُدرَّب فيها الخيل.

أحداً.. حين وصلنا أرباض جبل العروس، أَنَخْنا قرب خباء نصبه أهل الخدمة، ومشيت مع صاحبَي وأنا ذاهل عن كل شيء.. ذهبتْ سهامي، حين كنت أرشقها، بعيدة عن الطرائد... تبيّن الجمع أن يومي ذاك لم أصطد كبير صيد. لم يُلحفوا في السؤال، ولم يَسْعَ أحد منهم أن ينافسني في الصيد أو أن يضاهيني الطرد، ولكنهم أدركوا بعدها علّة شرودي.. أدركوا أنَّ في قلبي شيئاً حينما أخذت أتردد على جبل العروس، وأسلك ذات السبيل، وأتلهف لرؤية الفتاة التي كانت تسكن غير بعيد من الباب الشرقي من حومة عين فرقد، وأنزوي في الخباء صادفاً عن كل شيء.. لم أُخْفِ الأمر عليهم، وأمرت رفيقي جعفراً أن يستقصي الأمر ويعرف شأن الفتاة... كان أبوها من أصحاب الخدمة ببيت الخلافة.

هند.. دعني أبثُّ هذه الزفرة، لأنها الحب المتبقي من قلبي، وهي الطعنة النجلاء التي تُدمي فؤادي إلى الآن.. سكنتْ هند قلبي منذ ذلك الحين، ولم يعد لي شغل سواها.. أمشي بجنبات المباني المصاقبة للباب الشرقي عسى أن أظفر من هند بنظرة. أراها بعينيها النجلاوين، ولونها القمحي، وشعرها المرسل، ورقّتها الطافحة، فيزدان نهاري. تزْوَرُّ هند فيسودُّ يومي. أخلو إلى خُلّاني، فلا يجري الحديث إلا عن هند.. كانت مزيجاً من ملاحة العرب ورقّة البربر ووضاءة القوط.. كان زواجاً رائقاً لهذه المِلل التي سكنت أرض الأندلس، وسكنت جسم هند وسكنت قلب هند وجعلت قلبها لا يستكين لأحد.. كانت من هذا الصنف الذي يأبى أن يحبس نفسه في طوق أو قالب. جمالها أسمى من أن يكون خالصاً لأحد. هل كانت تشعر بذلك في قرارة نفسها؟ ولعلّ الأمر أن يكون كذلك،

والمؤكد أنها كانت تعرف جمالها ومدى أثر هذا الجمال في النفوس وسلطانه على القلوب... كان باشكوال يدعوني أن أفاتحها.. كانت تعرف ترددي على مكان خروجها واهتمامي بشؤونها. وهل يخفى أمر يأتيه أمير، فما بالك بمن هو ولي عهد خليفة المسلمين وابن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر..؟ أما جعفر فلم يكن له رأي، أو كان رأيه أن يجاريَني. كان له حدس غريب يستطيع أن يقرأ ما في صدري ويستشف ما بدواخلي، فينطق به ويذهب مذهبي.. كان يرى ألا أفاتحها، لأنه كان يشعر أني غير قادر أن أفاتحها ولا راغب في ذلك. كان يغلب علي طبعٌ من الحشمة وميل إلى الانطواء.. كان جعفر يعرف ذلك مني، ولذلك كان يسايرني. أما باشكوال فكان ينصحني بما يطابق مصلحتي.. لم يكن يراعي طبعي، ولا يأخذ بعين الاعتبار وضعي.. وكان ذلك يؤذيني.. والحقيقة أننا الأمراء، مهما زعمنا خلاف ذلك، لا نحب إلا من يجارينا، ولا نُقرّب إلا من يذهب مذهبنا... نظل أطفالاً صغاراً، ونحسب أن من ينصحنا بما فيه مصلحتنا يجترئ علينا ويتطاول على شؤوننا. قد يُقيَّض لنا أن نفهم، ولكن بعد فوات الأوان.

هل تعرف ما حصل لي من قصتي بهند؟ دعاني الخليفة يوماً لأرأس حفل خطبة أخي الأمير عبد المالك.. وبمن؟ بهند؟ إلى الآن، لا أدري ما حصل، وحينما كان يمكن أن أعرف وقد توليت شؤون الخلافة لم أسْعَ أن أعرف، لأن الجرح ظلَّ غائراً ولمّا يندمل؟ هل كان الخليفة يعلم بحبي لهند وأراد أن يمحق هذا الشعور لأنه كان يريدني لجسيم الأمر الذي لا يستقيم فيه حب ولا هوى؟ ولِمَ صدفتْ عني هند؟ لعلّها لم تكن تريد أن

تكون خالصة لرجل سيصبح أمير المؤمنين يَقْصرها في دور ويحبسها في وضع، ويُنكّيء قلبها بالمحظيات والجواري؟ وعرفت الأسوأ، فيما بعد، يا زيري.. في ظروف...

جوذر، زدْ من الحطب، أريد أن أرى التماعات النار، وأريد للدفء أن يشمل المكان.. أريد أن أسمع فرقعة الحطب... بورك فيك يا جوذر..

مادت بي الدنيا يا زيري حين أخبرني الخليفة بالأمر. كان يمكن أن أرد: «مولاي، اعفني من هذا الأمر. إن ارتأى الخليفة أن يُزوّج الأميرَ عبد المالك بمن ارتضى، فليس له أن يعذبني ضعفين، بأن يحرمني ممن أحب، وبأن أكون شاهداً على ذلك ومبارِكاً له»، ولكني تماسكت لأنْ لا أحد يستطيع أن يخالف أمر الخليفة، ولأني مطالَب بصفتي ولياً للعهد، أن أملك نفسي وأبدي رباطة الجأش وألا أُظهر ما يتلجلج في صدري، مهما كان.. وحضرت حفل خطبة أخي بهند.. وأقيم عرس ضخم لم ترَ قرطبة أعظم منه دُعي لها الأكابر من رجالات الدولة، بل من بلاد الخلافة، من بلاد البربر، من عدوة المغرب، وحضر الضيوف من مصر والشام والعراق، من الوجهاء الذين لم ينحاشوا للفاطميين، وكان خطرهم قد استفحل آنذاك.. قُدمت الهدايا الضخمة للعروسين، وتبارى الشعراء في التغني بزفاف الأمير ومدح الخليفة.. لم يشذ أحد في تقريظ العريس والإفاضة في جمال العروس. وكان ذاك بمحضري. كانت القصائد تُتلى عن العروسين وكانت كنِصال تمزق قلبي وتوغر صدري. كنت أرى العروسين يُحمَلان على العمّارية[1] ويمرّان

---

(1) العمّارية: هودج العروسين بالأندلس، ولا يزال الطقس والاسم متداولاً في المغرب.

بمقربتي، وتُلقى الزهور عليهما، وأرسل على أثَرهما ابتسامة متكلفة كاذبة.. لم يكن حبي لهند ليخفى على رجالات الدولة، وكان لهؤلاء قدرة على التكتم على الأمر يجعلهم لا يبينون. كانوا يأتون إلي في جناحي بالحفل ويُقبّلون يدي ويهنئوني على زواج أخي.. كان يفعلون لأنها إرادة الخليفة، ولم يكن لهم إلا أن يسايروا إرادة الخليفة، وكانوا يعلمون حبي لهند وشغفي بها..

غادرتُ الحفل قبل أن ينتهي، وصحبني إلى حيث مقامي في جناح القصر كل من جعفر وباشكوال.. هناك أرسلت دموعاً حرَّى.. لماذا فعل الخليفة بي ما فعل؟ لِم سايره أخي عبد المالك؟ ألم يكن خليقاً بأخي أن يرفض؟ ألم يكن على علم، أو كان حرياً به أن يعلم، كي لا يؤذيني؟ وهند... هند كانت تعلم.. فلِم قبلت بالأمر؟ أو أنها لم تحبني قط؟ وهل أرضى بألا تحبني، وأنا من أنا؟

بكيت بمحضر جعفر وباشكوال.. لم يغادراني إلا ساعة الفجر. زرت بعدها أمي مرجانة وأخبرتُها بالأمر. كانت امرأة متمرسة بالمحن.. فقدت بنتها، وفقدت زوجها، رغم حظوتها عنده وقد كان يوغر صدرها بالمحظيات والجواري، وفقدت من أجل ذلك براءتها..

نظرتْ إلي في غير اكتراث ونطقت في صرامة: «هذا أمر يهون أمام ما ينتظرك».

كنت ألتمس المواساة من أمي، ولم أجد منها ما كنت إليه أهفو. وكان علي أن أنثني إلى نفسي. وحتى أقرب الأقرباء إلي، جعفر وباشكوال، فلم ينفعاني في شيء. جعفر كان يحبب إلي تصرفي، وكان بنحو من الأنحاء مسؤولاً عن ضياع هند مني.

وباشكوال، باشكوال يُذكّرني بالفرصة الضائعة، لأني لم أكلمها، ولم أفاتحها في الأمر، وهو بذلك يدمي قلبي وينكيء جرحي.. هل كان للموت أن تأخذني وتريحني؟ عشقت الموت. أردت الموت. موت أغازله ولا أقتحمه، موت يأخذني إذ أحوم حوله عوض أن أنهي حياتي بدعوته إلي، عُنوة، مما يأباه عليّ ديني، ولا تقرّه معتقدات الناس من حولي..

التمست من الخليفة الذهاب إلى عُدْوة البربر من بلاد المغرب أتفقد شؤون الرعية. أمهلني لبعض الوقت، ثم أذن لي، وأمر أن يصحبني قائد الأسطول عبد الرحمن أحمد بن أحمد بن إلياس، وقائد من الجند، ثم حذرني نفسه:

- لست مِلْكاً لنفسك يا حكم، وانْأَ بنفسك عما يُعرّضها للأخطار.

ولكن الأخطار أردت ولوضع حدٍّ لحياتي كنت أسعى. تفقُّد أحوال الرعية لم يكن إلا ذريعة... أمرَ الخليفةُ كبيرَ الجند بتهييئ رحلتي واتّخاذ كافة الاحتياطات، وبعث الرُّصَّد يمهّدون لي السبيل. قطعت البحر من ألمرية ووقفت بحامة دافئة قربها، وبها بضع نخيل. تمليت المكان وتذكرت عبد الرحمن الداخل إذ حلَّ بعدوة الأندلس، مهيض الجناح، مقروح الكبد. رددت أبياته الشهيرة:

تبدّت لنا وسط الرُّصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرُّب والنُّوى	وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنتِ فيها غريبة	فمثلك في الإقصاء والمُنتأى مثلي

وكدت أجأر من ذات المكان بما تلجلج في صدري: «وها أنا عائد إلى حيث ارتحلت يا جدّاه، عائد لا يطالعني ظفر ولا تستحثني عزيمة. عائد وقد خذلني الحب، أنا الذي أتحدر من نسلك، وكان حرياً بمن هو من صلبك ألا ينثني أمام الأهوال، ولكنه الحب».

ركبت البحر في شراعات ترافقني، وجَمْعٍ يصحبني، منهم حاشيتي والقيّمون على خدمتي، ومنهم الجند الموكول بحراستي، وقبله الطلائع من الجيش، من قَطع البحر قبلي كي يمهّد السبيل. كان الجو صيفاً والبحر هادئاً، وبعد يومين من الإبحار وصلنا بر بلاد المغرب الأوسط، بوهران. كنت إخالني وكأني في الأندلس لم أبرحها. كنت كما لو أني في حضن جبال البُشرات وأرباضها. كأنها ذات الجبال، وذات التربة، وذات الوديان، وذات النبات.. وذات الإنسان قال لي باشكوال.. لا أدري. كانت لبشاكوال رُؤى مغايرة لما كنت أرى. تمردت على الجند، وعلى القيّمين عليه ولم أسلك السُّبل التي رسموها ولا أقمت في الأماكن التي هيؤوها. أوغلت في الصحراء، في قبائل البدو من زنانة. أطلقت العنان لفرسي ومعي باشكوال ركضاً في السهوب والبراري، في النجود العليا، حيث يشتدُّ الحر نهاراً، ويهب نسيم عليل مساء، فأتملى في ليالي، ما أروعها نجوم السماء. أسمُر أنا وباشكوال نتلو القريض من شِعْر العرب، ونذكر أيامهم ونتأسى بأمثالهم وعِبَرهم وشؤونهم وحِكمهم، وبرفقتنا جعفر الذي لم يكن من المعرفة في شيء. أقفُ دوماً على سعة معرفة باشكوال. كنا نتحدث عن كل شيء سوى هند، نتحاشى ما قد يُذكّر بها، ولو

أنها كانت حاضرة في خَلَد كل منا..

كنا أثخنا في الصحراء، لأيام عشر منذ حلولنا بعُدْوة البربر، وكنا أقمنا خباء قرب رُحّل من قبيلة مكناسة، قد استقروا ببعيرهم وماشيتهم. كان قد كلّمهم كبير الجند في شأني، وأخبرهم أن أخوال جدي عبد الرحمن الداخل من بربر زناتة، فأحسنوا الوفادة، وأقاموا القِرى، ولم يُقصّروا في شيء. شربنا لبن النوق، ونلنا من الرُّطَب، وأكلنا شواء الضأن مما لم آكل لحماً غريضاً مثله.. كان لأيامي تلك أن تكون أسعدَها لولا شبح هند وذكرى هند. في ليلة مقمرة، تمشيت أتملى، وبعد إذ عدت ألفيت باشكوال وجعفراً وقد أخرجا زقاً من الخمرة ينالان منها، ألفيتهما يتحدثان دون أن يعلما بأمري، فأصخت السمع. قال جعفر لباشكوال:

- قد تسعف هذه الرحلة مولانا الحكم، في أن ينسى هند.

ردّ باشكوال:

- هو لم يأتِ كي ينساها، ولكن كي يطمرها في وجدانه. لم ينسَ ولن ينسى.

- كأني به شخصاً آخر، عقّب جعفر.

- هو ذات الشخص، تسكنه منذ الآن هند. يبذل من الجهد أقصاه ليمحوَها من وجدانه فلا تزداد إلا حضوراً..

كانا يحدّثان عن جانبين مضطرمين من نفسي. جانب يسعى أن يُقبر ذكرى هند، وجانب ولو هو يطمرها، يُبقيها حية رغم ذلك.. ألم يكن فيما قال باشكوال جانب من الصحة؟ ألم تعد هند تسكنني ؟

وفَصل جمعُنا وأوغلنا في الصحراء. كنت أريد أن أبلغ

سجلماسة معقل الفاطميين قبل أن يبرحها مؤسس الحركة الشيعية عُبيد الله نحو أفريقيا ويبتني بها مرفأ المهدية. أضحت سجلماسة تَدين بعدها لجناب الخلافة، ويؤدي أُمراؤها فروض الطاعة لدولة بني أمية بقرطبة. وحدث أن اعترضنا جمع من البربر انقضّوا علينا كالنسور على الطريدة. أُخِذنا على حين غرّة، وأبدى الجند ممن كانوا في رفقتنا شجاعة مستميتة. تنازلوا والمغيرين بالسيوف، وقاتلت قتال من لا يخشى الموت، بل من يتوق إليه ويسعى إليه سعياً. ألم تكُ تلك غاية ارتحالي إلى بلاد البربر؟ تفرّق جمع المغيرين شذر مذر وقد قُتل منا اثنان، ومنهم أربع. رأيت باشكوال يقاتل كالضرغام، وازداد عجبي من هذا القوطي الذي لم يُثنه قيظ ولا شظف عيش ولا وعورة المكان، عن ركوب المخاطر وارتياد الأهوال.. وكاد كبير الجند أن يرتكب حماقة لو لم أصدّه. ذهب به الظن أن البدو ممن استضافونا هم من أوشى بنا، وكان مزمعاً أن يقتص منهم. جهرت بالقول:

- لن تفعل، لأن أخلاق القِرى تأبى عليهم ذلك.

- مولاي، أنا قائد الجند هنا.

- وأنا ولي عهد الخليفة، رددت عليه.

- لا يمكن أن نُعرّض الجناب المنيف للخطر.

- ولا يمكن للجناب المنيف أن يجنح للغدر. اعلم أن من استضافوني هم أخوالي من زناتة، وأن من أغاروا علينا من برير صنهاجة. لقد عرفت ذلك من لسانهم وأنا أستطيع أن أميّز بينهم.

لم أكن على بيّنة من ذلك.. لم أكن أستطيع أن أميّز بين اللسانين، ولا كنت أعرف أكان المغيرون من فلول الفاطميين

وأتباعهم، ولكني لم أُرِدْ أن أحمل على. عاتقي إصر قوم آووني وقدّموا لنا القِرى وشاركوني الطعام.

لِمَ قاتلت قتالاً مستميتاً؟ ألم تكن الفرصة سانحة كي أموت، أم أنّي كنت أخبئ في غياهب نفسي ارتباطاً بالحياة، وأملاً في بعث جديد..؟

لا أزال أذكر شريطاً أخضر تبدّى لنا بعد طول سفر في القفر. نخل وفاكهة وعنب ورمان. شريط طويل وسط البيداء. شريط يشقه نهر يترقرق منه ماء منهمر هو باعث الحياة في هجير الصحراء. ذاك زيز. أمسكت عنان فرسي وتوقفت أتملى ذلك المنظر البهي، ثم أغمضت عيني. كنت أود أن أراه بعين القلب وأسكنَه تجاويف الوجدان.. أمرت الجند أن يَضربوا الخيام على المرتفع المطل على الواحة ويجددوا الرُّواء من ماء النهر وتستجم رواحلنا.. أوقدنا النار، وذبحنا الذبائح، مما اقتنياه من الغنم من عند الرحّل.. شعرت بالسكينة تنسل إلى جوانحي، وإلى الراحة تسكن جوارحي. لم أَسْعَ لحديث ولا سماع قصص ولا التأثر بعِبر. كنت أود الحديث إلى نفسي و الاستماع لخلجاتها، وكأنما المكان دعاني لذلك. هل الأمكنة جامدة بلا روح؟ أو بتعبير آخر، هل هي صماء، بلا حديث ولا أثر أو سر؟ كلّا، هي كالنساء، منها من تجذب اهتمامك، وتملك شغاف نفسك، وتدعوك إلى الغَوْر في أعماق نفسك، وتبعث فيك حبّ الحياة، ومنها التي لا تستثير فيك أي شيء.. كان للمكان سحر امرأة فاتنة. سحر امرأة تنطوي على جمال سافر وأسرار منحجبة.

قطعنا بعدها سراديب الواحة. خببنا بخيولنا بمحاذاة نهرها. وقفنا على عيونها.. كأنما هي قطعة من جنة غير بعيد من لهيب النار. ما أن تغادر ظلها الظليل، حتى تباغتك حَرة رمضاء وكثبان محرقة.. كانت عراجين النخل تتدلى، وعناقيد العنب تَتْرى مما لم أذق ألذ منه في حياتي.. لم أكن في عجلة من أمري. نقيم على مشارف الواحة ليلاً، ونقطع على صهوات خيولنا ظلالها الوارفة نهاراً غيرَ بعيد من النهر.. أو قد أستسلم لغواية القنص فأصطاد المها والريم.. كان لذلك السفر أن يكون أجمل تجربة في حياتي لولا جرح هند، بل لعله أن يكون أجمل سفر لي رغم هند.. رأيت جمال الطبيعة في هذا التضارب بين الخصب والجدب، ورأيت في هذا التضارب صورة لذلك الإنسان الذي لم يبادرنا بعداء. رأيته مُكبّاً على فلح أرضه، كما يفعل فلاحونا بالأندلس، في عزم وصبر وأناة، ورأيته سريع الغضب ينتفض للاشيء، ويسترخص حياته من أجل لا شيء كما رأيت البدو يفعلون. إلى أن بلغنا حاضرة سجلماسة.. واستقبلنا أميرُها فأحسن الوفادة، واعتذرت له كي أخلص لنفسي، وجنح خيالي إلى حيث أصولي من جزيرة العرب.. وكأني أحج إلى حيث جذوري..

لِمَ أحدثك بذلك زيري؟ لن أستطيع أن أصوّر مشاعري آنذاك مهما أفعل، ولن أستطيع أن أرسم صور لسجلماسة مهما أسعى.. كانت مغايرة لكل ما شاهدت من بلاد البربر.. كانت تَشِعُّ بالحركة وتفيض بالحياة، وكانت مرتبطة بشرايين ماء النهر، وبطرق التجارة في الصحراء.. كان صلة وصل بين عالمين، بين الحضر والرُّحَل، بين الخصب والجدب، بين بلاد المغرب والقفر. هي المعبر إلى

الشرق، ونقطة تضارب بين بربر زناتة وبربر صنهاجة. كانت لا تسلم من قلاقل ولا تخلو من فتن حينما يُغير عليها بربر صنهاجة من الرُّحل.

ولكني لا أستطيع ألا أحدثك عن شيء كان له أثر بيّن في نفسي. أثخنا في القَفْر وجاوزنا مضارب الواحة وجزنا كثيب الرمال.. كانت الساعة عصراً، وخلوت بنفسي وسط شجيرات من الأثل، وعلى حين غِرة رأيت ثعباناً ضخماً يزحف نحوي. لم أكن أحمل في يدي أي شيء أحمي به نفسي، لا عصاً ولا سيفاً ولا رمحاً أذود عني خطره.. ندّ عني من هول المفاجأة صراخ، صراخ الرَّوْع والخوف.. رفع الثعبان رأسه مصوباً إياه نحوي وهو يبعث بلسانه.. أدركت أنها النهاية. لِم انتابني الخوف؟ لِم صرخت؟ أليست تلك رغبة الحياة؟ وأين أنا من رغبة الموت التي كنت أسعى إليها؟ أم أنني كنت أريد موتاً آخر، موتاً بطولياً، ليس موت لذعة أفعى، ولا السم يسري في مفاصلي فيُكلّس أعضائي، ويشلها رويداً رويداً..

عرفت بعدها لذعة هي أمضّ من لسعة ذوات السموم. لذعة القريب، ولذعة من تسبغ عليه كل شيء ويأبي إلا أن يلدغك بسموم لا تُبين. من التقرب والتزلف والكذب والنفاق والمِراء..

نعم شعرت بالخوف، وتصلبت في مكاني إلى أن صادفني صوت مِن خلفي:

- اثبتْ مكانك يا حَكم..

كان صوتَ باشكوال. تقدم في تؤدة نحو الثعبان بعصا إلى أن قاربه، وسجّل لحظة تملي يستجمع فيها قواه ويركز ذهنه. لم يكن

له أن يخطئ الرمية لأن الخطأ هو الموت. انهال عليه بعصاه بقوة على الرأس. أخذ الثعبان يتمطى، ثم تمدد وقد أصيب رأسه وهو يرسل فحيحه وينفث سُمَّه. تراجع باشكوال ودعاني للتراجع.. ثم بعدها استدار خلف الثعبان، ووجّه له ضربة أخرى. فقد الثعبان قوته.. عاد باشكوال وقد ألقى عليه حجراً ضخماً ردخ به رأسه. مات الثعبان وانبعث مني شيء لم أتبيّنه آنذاك. عدنا أدراجنا، ثم صعدنا كثيباً من الرمل وجلسنا نرقب المغيب.. شملتنا السكينة. لم تكن العلاقة آنذاك علاقة أمير بواحد من الرعية، بل علاقة صاحبين.. علاقة لسوف تغور مع غروب الشمس. لم أرَ بعدها إلا علاقة الدائن بالمدين. وكنت مديناً في حياتي لباشكوال.

مؤلم أن أقول لك ما اعتمل في فؤادي بعدها، ذلك أني لم أقبل بوضع المَدين. أضحى منظر باشكوال يُذكّرني بذلك، ويُذكرني بلحظة من لحظات ضعفي كان الشاهدَ الوحيد عليها.. لو لم أكن أميراً لأوثقني ذلك الدَّين مدى الحياة، ولكني لأني أمير فقد أثقل علي و لم أقبل بذلك.

غادرنا بعدها الصحراء، وجزنا تضاريس وعْرة وسط جبال شاهقة، وداهمنا في عدة أحايين الثلجُ، وعصف بنا البرد، وقطعنا أماكن بها الوحوش الضارية، من سباع ونمور وخنازير برية يمكن أن تُجهز علينا في كل حين، وكاد فهد أن يفتك بنا لو لم يَصدّه الجند ويرشقونه بالسهام. وصادفنا الشتاء وعصف بنا الزمهرير واحتوانا البرد، واعترضنا الوحل في سهول يتداخل فيها بربر زناتة والمصامدة.. كنا ثلاثتنا نركب خيلنا، نتقدم لثلاث في صف، أو لاثنين أو نتعاقب واحداً تلو الآخر محاطين بالجند.. كنت أحياناً

أختلي وراء الموكب وأتملى، من صهوة فرسي، هذين الزميلين جعفراً وباشكوال.. و قَرَّ قراري أن أجعل جعفراً يدي اليمنى وأن أنأى بنفسي عن باشكوال. فكرت في ذلك وأنا أقطع الزقاق، من المكان الذي يُسمّى بقصر المجاز حيث عبر طارق بن زياد وجنده البحر.. دخلت عدوة الأندلس والبشائر تطالعني، ويممنا شطر قرطبة وقد نفرت الأرصاد وطار الحمام الزاجل إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر تبشره بقدوم ابنه وولي عهد أمره، وتأهّبت قرطبة لاستقبالي استقبالاً بهيجاً. ولكنني لم أعد ذات الشخص. التمرد الذي ذهبت ضحيته أختي زينب، وصدود هند عني، هما الحدثان اللذان صاغاني في حقيقة الأمر. مقتل زينب قتل الطفولة مني، وازورار هند عني، قتل الحلم من قلبي. وهل أنسى باشكوال ودَين باشكوال؟ شعوري بالتميز مَحقَ الائتمار بالوفاء، ومحا الإيمان بالصداقة. قد يختصنا الله، نحن الملوك، لجليل الأمر، ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن ينزع منها ما هو جميل في الحياة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، صدق الله العظيم.

* * *

صرت شخصاً آخر مذ عدت من عُدوة المغرب. لم يكن الاستقبال الذي خُصّصتُ به استقبال حفاوة، بل حفل ميلاد جديد. نعم أصبحت أؤمن بالأمانة التي تنتظرني، وأتشوف لها، وأقدّرها حق قدرها..

نأيت عن باشكوال. أضحيت أراه بنظرة أخرى، والتمست لذلك الأسباب ومنها أنه قوطي يخبئ في قرارة نفسه حسرة مجد ضائع، ولأنه جمع إلى ذلك المعرفة والذكاء، يمكن أن يثور. لم أكن على يقين أن يخلص لي، لأني لم أكن أريد أن أحيط نفسي إلا بمن هو أشبه بآلة يأتمر بأمري، ولا يجادلني في شيء. أليس يقال ما اجتمع سيفان في غمد؟ كان تميز باشكوال يثقل علي، وأضحى دَيني نحوه غلّاً يوثقني.

واهتديت أن أسررت إلى الخليفة من خلال واحد من ندمائه، اختُص بالاغتياب وقول الزور، قولاً يُسرّ به للخليفة في ساعة سرور. قال النديم للخليفة إن باشكوال من جرثومة ابن حفصون، يحركه ما استبد بابن حفصون من طمع في الأمر، ويسكنه الثأر مما حاق به ولحق أهله..

لم أقدّر تبعات الأمر آنذاك، كنت أريد أن أسوِّد صحيفة باشكوال أمام الخليفة، ومن ثمة أمام الحاشية. كنت أريد أن أقضي على جرثومته، ولا أدَعُها تحظى بسلطة أو تنتهي إلى قوة أو تظفر بنعمة.. بلغت جزءاً من ذلك، وقطعت الطريق على باشكوال، ولكني لم أقدّر أن تسكنني صورة ابن حفصون، المتمرد الثائر. أضحيت أراه ساكناً في شخص باشكوال. يبلغني تردّي باشكوال فأبتهج، وينتهي إلي انبعاثه فأنقبض.. كنت أريد أن أخيف الخليفة، فاستحدثت ما أخيف به نفسي.

حين أُبْلِغَ الخليفةُ قولَ الواشي عن سَكن روح ابن حفصون لباشكوال، أصدر حكمه الذي لا معقب له، من دون أن ينطق باسمه:

- اعزلوه عن ولي العهد إذاً، ولكن بيسر حتى لا يشعرن بشيء..

أشخاص كثيرون من حاشية الخليفة عبد الرحمن الناصر، أقاموا مجدهم بالتشهير بباشكوال، وآخرون بلغوا مبلغ السؤدد بمقربتي لما توليت أمر المسلمين، بالثلب فيه والنيل منه. كانوا كلهم يزعمون خدمتي والدفاع عن مصلحتي ومصلحة المسلمين.. كانوا يدفعون بذلك، ولذلك حالوا دون أن يتولى باشكوال المسؤولية، أو حين يتولاها، أن يُفسدوا عليه الأمر.. بلغوا المراتب العليا بفضل باشكوال، بتسويد صحيفته والكذب عليه، والإسراف في التأويل، علماً أن ذلك كان يروقني، وكان فعلاً يروقني.. ولكن دعني أتملَّ الأمر، ماذا أفدت من نصب باشكوال عدواً؟ ألم يكن يحسن أن أدخله في أتون الدولة يذوب فيها وتلتهمه ضمن من تلتهمه كالنار تلتهم الحطب؟ خمسون سنة، وما يزال شبح باشكوال ماثلاً أمامي،

يتهددني كل حين. اعتزل الناس واعتزل السياسة، واستقر في كورة لوتشة، مثلما أخبرني قاضي الشرطة، ولكن شبحه لا يزال يطوف بي.

ينبغي أن أقول لك كل شيء، وإلا فلا معنى أن أستخلصك لكي لا تنقل عني إلا ما ينقله مؤرِّخو الخلافة وكتاب الدواوين، ممن يُحرّفون القول ويخرجونه عن مواضعه ويزينون الأشياء. ليس لهذا اصطنعتك يا زيري، فعن قريب ألقى الله، وينبغي أن تَشهد عني، وأن تكون هذا الشهادة كفّارة لي.. شعرت بأني أخفقت مع باشكوال، وأن الذي كنت أتحاشاه هو الذي وقع أو سيقع.. نعم تحول باشكوال إلى ابن حفصون آخر، ابن حفصون من غير جند ولا أتباع ولا جاه. ابن حفصون من طبيعة أخرى، يحمل قلماً ووعياً. يتهددني ولو من رواء الرمس. يتهدد تراث بني أمية. يثأر للقوط. يمحق جرثومة بني أمية، بل جرثومة العرب وثقافتهم وحضارتهم، ويربط هذا الأرض بميراث الرومان والإغريق، هو الذي يتقن لسان العرب، ويعرف حضارة المسلمين وتاريخهم.

تصورْ ذلك يا زيري؟ لعلي أهذي، ولعلي أسرف في الحكم وأجور عن القصد، ولكن الحياة تمنحنا قبل الرحيل صفاء الذهن ونفاذ البصيرة.. رأيت شبح باشكوال غير ما مرة في الزهراء، أو هنا بالمنتزه بمُنية الناعورة، يقف علي ويحدثني مستهزئاً بي، منادياً إياي من غير لقب:

- أخفقتَ يا حكم في تحرزاتك كلها، حسبتَ أنْ بجيشك ورَجلك ستمحقني، وها آنذا قائم.. لسوف تجدني في كل منعرج يا حَكم، لا يُغنى عنك سلطانك ولا جاهك، أو يعينك في شيء.. حتى

إذ أموت. لأني أضحيت فكرة.

وأمد ذراعي نحوه وألقي قولاً مبهماً، ثم ما يلبث الفتى فائق أن يمسكني ويدخلني جناحي، بدعوى أني أهذي...

أبلغني صاحب الشرطة أن كثيراً ممن خدموني، لمّا أصابني من الوهن ما أصابني، زاروا باشكوال في معزله، والتمسوا الصفح منه.. أوحوا، بل جهروا بأنهم لم يكونوا من الأمر في شيء، وأنهم كانوا مأمورين.. من المسؤول عمّا جرى لباشكوال سوى الخليفة؟ تنصلوا من كل شيء، وألقوا بالتبعة علي. هي ذي قواعد السلطان حين يدبر، يتنصل منك من كانوا أقرب الأقرباء، ومن زعموا الخدمة ودفعوا بالوفاء.

لست أُبرّئ نفسي من المسؤولية، ولكن الأمور أعمق من أن تُلصق بشخص. أنا لست شخصاً يا زيري، أنا حلقة من سلسلة طويلة، يتردد صداها في قرارة نفسي.. أحمل تراث عبد الرحمن الداخل والحَكَم...

يبغي أن تفهم يا زيري ما يتلجلج في صدري، وأن تنقله إلى طرف القلم وتحسنَ التعبير عن ذلك شهادةً لمن يأتي بعدنا، أمام سِجِل التاريخ.. أنا سليل بني أمية، سليل مجد العرب الذي أوشك أن ينطفئ، وتتهدده الأخطار من كل جانب. أخطار الوهن، وأخطار الطامعين من الفاطميين، والمتربصين من المسيحيين، والناقمين من القرامطة. هل يمكن أن نعبث بهذا كله أو نستهين به؟ هل يمكن أن أهزأ بالرسالة الجسيمة التي حُمّلتها؟ لقد برئت من الحب، أو حسبت أني برئت منه، ولم يعد لي من شغل إلا شؤون الدولة وأمور الخلافة، فهل سأحفل بما يجيش في صدر باشكوال، أو ما

قد يعترض أمور الدولة من حالات شخصية أو يُنغّصها من عوارض نفسية ؟

أنا سليل عبد الرحمن الداخل، صقر قريش، صاحب الأمر العظيم والملحمة الكبرى، أجده في كل منعرج من حياتي وأخشى حكمه علي، كما لو هو يرمق خطواتي كلها. نحن الملوك لا نعرف صنواً لنا سوى الملوك، ونكره من ينازعنا السلطان أو ينافسنا في الجاه، أو من قد يضاهينا في المال. نحن الملوك لا نعرف سيداً سوى ذكرى من سبقنا من الملوك، إلا الذين أراد بهم الله خيراً فأودع قلوبهم خشية الله.. أستحضر عبد الرحمن الداخل وأستحضر نموذجه، وأسعى أن أتأثره. كما هو استمرارية لي، يندس وقد خلوت لنفسي، فيراجعني في قرار اتخذته وحكم أجريته، وكأنه يهمس بي:

- لا يا حَكَم، ليس ذلك مما يليق وشؤونَ الخلافة ويرفع سؤدد العرب ويحمي بيضة الدين ويحافظ على مجد الأندلس.. لا تنسَ يا حكَم، نحن المؤتمتون على هذا الأمر العظيم. لا تنسَ يا حكَم، دعْ الناس وما يعبدون، ودعهم وما يبتغون.. لا تُسلِّط عليهم ما يوهنهم، كُن الراعي الشفيق، فكلما كانوا حِلاً من أي طوق وخفافاً من كل حِجر، كلما أتوا بأحسن ما لديهم، وجادت قرائحهم بخير ما في نفوسهم. لا تثقل عليهم بالأحكام. كُن الموئل الذي إليه يفزعون حين تضيق بهم السبل. لا تخُض في دقائق شؤونهم... كُن كالشمس تنيرهم وتبعث الدفء فيهم. لا تتحول إلى نار تحرقهم.

وأسكنه كذلك، فكأني عبد الرحمن وقد تعقبني جند بني العباس، وأنا ألقي بنفسي في لجة الفرات.. أرى أخاه الصغير

يغالب مجرى النهر، فكأنما أنا من يغالب اليم. أراه وقد كَلّ ساعده، فكأنما هو ساعدي الذي كلّ. ويستحثه أخوه الأكبر وكأني أنا الذي أفعل.. «لا تَهن يا أخي، لا يخدعنك نداء بني العباس وإن جأروا بالأمان، الغدر شيمتهم». أردد وكأني أغالب مجرى الفرات، وتكِلّ ذراعا الفتى ويعود أدراجه.. وأراه وقد بلغتُ الشط وقد أمسك به بنو العباس وبنودهم السود خافقات، وهم محكمون القبض عليه. يساومونني فيه، ثم أرى السيف يرتفع إلى أعلى، ويطير برأسه ثم يتدحرج على الأرض.

هل تتصور ذلك يا زيري؟ ضع نفسك مكان عبد الرحمن. قتلوا أهله، قتلوهم عن آخرهم ولم يبقَ إلا هو وأخوه. هل تتصور أن ترى أخاك يُقتل أمام ناظريك ليُفلّ من عزمك؟ كم هو عظيم عبد الرحمن وهو يقطع البراري رفقة خادمه الوفي زيد، وكأنما ركض فرسه ركض على كبده وذكرى أخيه. وكم هو عظيم وثلج فلسطين يغطيه بندفه، فكأنما هو حنو عليه، وكم هو عظيم وهو يقطع فيافي سيناء، ويجوس خَلل صحراء مصر، إلى أن يبلغ أخواله ببرقة. يستجم بها، ويداوي كبده المحروقة وجراحه الثخينة، وهو عصي الدمع، أشم الفؤاد، سمين الرجاء، رغم المخاطر والصعاب. ثم يُيمم شطر أفريقيا، ولا يرى بدّاً أن يمعن حتى بلاد المغرب الأقصى.. يداري تلك القبيلة، ويترضى ذاك الأمير، ويختبئ في لباس عطن، ويجوز البحر، ولا سلاح له إلا عزيمته.. يزاوج بين الحيلة والقوة.

كيف يُوطد أرضاً عصية ويستهوي نفوساً نافرة ويستميل رقاباً شمّاء إلا بالعزم والحزم؟ قُدّم له الخمر بالأندلس فأعرض عنها، وقال إنما أنا محتاج لما يزيد عقلي لا لما ينقصه. أُهديت له جارية

فنظر إليها وقال: «إنني إن اشتغلت عنها بِهِمّتي فيما أطلبه، ظلمتها، وإن اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي، ولا حاجة لي».

ثم هذان البيتان، مِن نظمه، وقد سكناني إلى الآن. أصخ إليهما:

أبَني أمية قد جبَرنا صدْعكمُ	بالـغرب رغماً والسعود قبائل
ما دام من نسلي إمـام قـائمٌ	فـالمُلك فـيكم ثابت متواصل

تملَّ معي هذا البيت الأخير وضعْ مكانك مكاني، ألا ما أثقلها من أمانة وأعظمها من مسؤولية. فهي كالجمرة نتوارثها، ولا يحق لأي أن تنطفئ في يده. هي حارقة، قد يحملها المؤتمَن عليها في رفق، وقد ينقل لهيبها إلى الرعية، فيغضبَ ويستبدَّ ويطغى.

هو ذا عبد الرحمن الداخل، صاحب العزم والحزم. وفي طرف آخر، حفيده الحكم بن هشام، الجبّار المتكبر. هو النموذج الثاني لحكم بني أمية. تولّى الأمر وسنّه لا يربو على الست والعشرين، واستصغره أسنان الدولة ورجالات الحُكم. فواجههم بالبأس والشدة. كان خطيباً مُفوّهاً ومقداماً لا يهاب الأخطار. أيقن رجالات الدولة بعدها أنهم أمام رجل لا يهزل وإن كانت حياته هزلاً. يحب متعها، ولكنه لا يهتم بشيء سوى شؤون الحكم وأمر السياسية. ما المال، ولا الجاه، ولا الرجال إلا أدوات، ولذلك لم يكن يعطف إلا على أصحاب العلم والفقهاء ويهزأ بمن سواهم. تغيرت شؤون الأندلس ولم يدرك ذلك، ورفض المُولّدون أن يُساسوا كالقطيع فثاروا. كانوا أصحاب معارف وحِرَف وسؤدد قد تولى، ولم يكن لهم حظ من ثروة البلد ولا نصيب من شؤونها. لم يفهم الحَكم حركية المجتمع وتطور

شؤونه، وعالج الأمر بالشدة. ثار أهل طليطلة، وكانوا قريبي العهد من مجدهم الضائع. تذرعوا بسيرته الماجنة وحمل الأمرَ الشاعرُ ابن عبد الله الطليطلي، يؤلِّب الناس عليه. تحصّن الثوار وراء أسوار مدينتهم، فجنح الحَكم للحيلة، وولّى عليهم مُولّداً مثلهم هو عمروس بن يوسف. تظاهر الوالي بكرهه لبني أمية، وقرّب كبار رجالات طليطلة. دعاهم لوليمة وقتلهم عن آخرهم وألقى بجثثهم في حفرة، وهي الحدث المعروف في كتب التاريخ بواقعة الحفرة. كان ذلك سنة 181. كان الحَكَم يؤمن أن الناس لا تساس إلا بالشدة، ولا ترضخ إلا للقوة، ولا تدين إلا بالخوف. كان الحَكم مخطئاً. قد تنثني العامة أمام القوة، ولكن إلى حين.

بلغت أخبار طليطلة المُولَّدين من قرطبة فغضبوا، وتحول غضبهم إلى ثورة، وكان ذلك سنة 189، ولكن وشاية أجهضت تمردهم، فحمل الحَكَم اثنين وسبعين رجلاً منهم وصلبهم أمام قصره، وأمر بقتل اثنين من أعمامه كان أودعهما بالسجن منذ تولى الحُكم.

خمدت الثورة لفترة، ثورة الرَّبض الأولى، ولكنها كانت كالنار على دَخَن ما لبثت أن استعرّت وقد قادها الفقهاء هذه المرة. جابه المتمردون الحَكمَ وهو عائد من رحلة صيد، وأقذعوا له القول، فأمر بالقبض على عشرة من متزعمي التمرد وصلبهم. هاجت الرعية من كل الأرباض. لم يحفل الحكم بهيجان الرعية وواجهها باستخفاف، وأمر خادمه أن يفرغ زجاجة عطر على رأسه. نظر إليه الخادم مندهشاً:

- مولاي الأمر جلل، والقصر محاط به وقد تغشّته الغوغاء

تقتل وتبطش؟ فهل يرى سيدي أن يتعطر أمام هول الخطر المحدق؟

فما كان جوابه إلا أن قال، وهو رابط الجأش:

- ثكلتك أمك، ومن أين يُعرف رأس الحَكم من رأس غيره؟

ينبغي لمن هو متفرد في الحياة أن يكون متفرداً في الممات.

هل حقاً كان الحَكم يهزأ من التمرد ويستصغر شأنه، أم أنه كان يسعى أن يصرف عنه الهلع الذي يجيش في صدره بالاستصغار منه؟ لو لم أتوَلَّ شؤون الرعية وسياستها وما تحمل النفس عليه من أمر، لما أدركت أمر جدي الحَكَم واعتبرت الأمر تهرُّباً.. لم يكن هازئاً، لأنه بعدها اتخذ قراراً خطيراً بأن أفرغ قصره من الحرس، وأمر رئيسه ابن عبد الله البلنسي بالتحول إلى الربَض وإشعال النار فيه. ضرب الخطوط الخلفية للثوار. كانت مجازفة أن يُحوّل حرسَه الخاص خارج القصر نحو الربَض، ولكنها المجازفة التي غيّرت كل شيء وأطفأت التمرد وأزاحت الخطر. تحَوّل الثوار عن القصر نحو أهليهم بالربَض وقد نشبت في سكناهم النيران واحترقت المملكات. كان عدد القتلى مُرَوّعاً، ما يقارب العشرة آلاف قتيل. ثم قبض الحَكم ثلاثمئة من الثوار من دون تمييز وصلبهم أمام القصر، وتفرق أهل الربض، ورحّل منهم البعض إلى عُدوة المغرب والإسكندرية وإقريطيش..

كان الحَكَم مخطئاً، ولكنه يسكنني. كنت أسمع صوته يناديني:

- القوة إحدى أدوات الحُكم. وليس مهماً الوسيلة التي نستعملها بل النتيجة التي ننتهي إليها. أنا مؤتمن على أمر وحامل لأمانة وليس لي إلا أن آخذ الأمر مأخذ الجد، ولا شأن لي بالوسيلة.

كان الحَكم مخطئاً، لأنه ليس له أن يحمل الناس على ما

يرى، بل عليه أن ينثني لجموح الرعية حين تثور كما تجمح الفرس الحرون. كان عليه أن يسمع أنّتها حين تشكو، وألا يرى في ذلك، وقد جنح لها، ضعفاً.. كان على الحَكم، وكم يؤلمني أن أجري حُكماً على جدي، أن يدرك أنه أمير على العرب والبربر والقوط والمُولّدين والمسلمين والمسيحيين واليهود قاطبة. كان عليه أن يستمع إلى هؤلاء جميعاً. لست على يقين أن المهم هو الحُكم مهما كانت الوسيلة، ولا أن الحُكم غاية.

لُقّب الحَكَم بالفحل، وأُطلق عليه الربَضي ذكرى لحدث الربض البغيض. كان نموذجاً للحُكم. لم يكن أسلوبي ولا نموذجي، ولكني سليله. وكأني به يسمع مؤاخذتي عليه فيرد علي ببيته المأثور:

فهذي بلادي إنّي قد تركتها مِهاداً ولم أترك عليها مُنازعا

ثم يشفع بالقول مما يجري به خيالي:

- لِم يا مستنصر بالله لا تقف من سيرتي إلا على مظاهر البطش؟ وهل هناك سلطان سلِم منه؟ أنسيت شكاة المرأة التي استنقدتني من وادي الحجارة وقد وقعتْ في الأسر، وشكت كَلَب العدو، فهببتُ لنجدتها وأطلقت سراحها وثأرتُ لها. أنسيت بلائي الحسن ضدّ الجليقيين ورفعي لراية المسلمين.

لا تخلو صورة مهما ازدانت من مواطن ظلّ تكتنفها، ولا تخلو أخرى قاتمة من ومضات نور يجللها. ولكن الناس لا تحكم إلا بالهوى ولا ترى إلا جانباً واحداً، الجانب الذي يدعو إليه الطمع، أو الذي يدفع إليه الحقد والضغينة... كان للحَكم،

الأمير الماجن، مواقف شهمة تنمّ عن علو همة حين أنقذ المرأة المستصرخة، وكان لعبد الرحمن العظيم مواقف مخزية، أي نعم. تولى عمّن ساعده على الأمر، تولى عن بدر الذي حمل عنه جزءاً من الأمانة، بدر الذي حارب في صفوف طارق بن زياد، وأمسك بيد عبد الرحمن من السماوة بالعراق إلى فلسطين، ومن ثمة إلى مصر فبرقة، فأفريقيا، حتى المغرب الأقصى، فعدوة الأندلس. بدر من كان نصيحه وساعده الأيمن.. أعرض عنه عبد الرحمن الداخل وقد أضحى بدر شيخاً طاعناً ونزعه من كل شيء، ونزع كل شيء عنه. صار بدر معدماً فقيراً، وتحوّل عنه من كانوا يخطبون ودّه وقد أدار الأمير ظهره عنه..

وهل ألوم ها هنا شخصَ عبد الرحمن أم وضعَ الأمير؟ لا يحب الأمراء أن يكونوا مدينين لأحد، ولا يتورعون من التنكر لمن ساعدهم على الأمر، وقد يُقدمون على محو أثرهم واستئصال جذورهم..

قمت بذات الشيء مع باشكوال، فهل أُلام؟ و هل وُفّقت؟ وليتني وُفّقت.

ينبغي أن أستريح يا زيري. أستأذنك لبعض الوقت. يمكن أن تنتظرني بجناح المُنية. سأخلو مع خادمي جوذر...

قُل للخدم يا جوذر أن يوقدوا المصابيح بداخل المُنية... لم أتبيّن مغيب الشمس.. جوذر، ساعدني على الوضوء، وضَعْني أمام القِبلة بعدها أخلص لبارئي أصلي صلاة المغرب. لا إله إلا الله، له الحُكم وهو علي شيء قدير.

***

أين كنا من حديث؟ توقفنا عند عبد الرحمن الناصر. هو ذاك. عبد الرحمن الناصر هو واسطة العقد والكوكب المنير والنور الوهّاج. ملوك بين أمية كواكب وهو البدر في تمامه. أو كأنما ملوك بني أمية وأمراؤهم روافد لنهر عظيم هو عبد الرحمن الناصر. نهر عظيم منبعه عبد الرحمن الداخل، ومصبه عبد الرحمن الناصر.. عبد الرحمن الناصر مَن تسمّى بأمير المؤمنين.

كان كل شيء في حياة من وُلّيت الأمر من بعده بهيّاً، ولكنه بهاء يمتزج والمأساة، أو بتعبير باشكوال كان تراجيدياً. بدأت المأساة أول ما بدأت بمقتل والد عبد الرحمن، محمد، وهو إذّاك ولي للعهد، من قِبل أخيه المطرف، يوم مولده. أشد المعارك وأشرسها ليست التي نخوضها ضدّ البعيد بل تلك التي يشنّها القريب ونُدفع إثرها للردّ. حتى انتصارنا يمتزج وطعم الهزيمة. أي انتصار أن تثلم جسدك أو تبتر عضواً منك؟ وكان ذلك قدرَ الأندلس، وهو الدود الذي قد ينخرها. أبى الجد إلا أن يُثَبِّت الحفيد ولياً للعهد ويصد عن الولاية أبناءه. آه، لو يعلم الناس شرور السلطان و مآسيه؟ أوَليست مباهجه سعياً للفرار من هجيره؟

أذكّرك ما تعلم، وينبغي أن تنقله إلى طرف القلم، ذلك أن أمَّ عبد الرحمن الناصر كانت مسيحية، تحمل اسماً مسيحياً وهو مارية، اتخذت لها بعدها اسماً عربياً أو إن شئت إسلامياً هو مُزنة. لم يكن ارتدادها عن دين آبائها وتحوّلها للإسلام إلا صورياً، لأني وجدت ميسمها في شخصية عبد الرحمن الناصر. ليس أنه كان مسيحياً سيئاً أو مسلماً سيئ الإسلام، ولكن لما وقفت عليه من احترام الأديان جميعها ومعتنقيها من دون تمييز. صراعه مع الممالك المسيحية كان صراعاً سياسياً بحتاً. كان يقول لي:

- لِتعلمْ يا حَكم أن شأن العقيدة أمر شخصي. أحكُم على الناس بما يأتون من عمل لا بما يؤمنون به أو يعتقدون، فالحق أجلُّ من أن يُقصر في دين والأخلاق أسمى من أن تُحصر في قبيل.

عنه ورثت ذلك، وعن مرجانة أمي كذلك. وهل أنكر أني مسيحي في نحو من الأنحاء؟ قد تعجب لذلك. نحن أهل الأندلس مسلمون ومسيحيون ويهود في آن، ويرتبط الناس بروابط أسمى من روابط عقائدهم، ويُجرون حيواتهم ليس بالضرورة على ما تتضمنه نصوص كتبهم المقدسة.

كان لهذا الشعور المستشري في الأندلس أن يجد حاضناً، وكان الراعي لهذا الإحساس هو عبد الرحمن الناصر. كان هو من رسم معالم المنظومة، ومن حدّد نموذج الأندلس وأرسى قيم التسامح والعيش المشترك..

كم للتاريخ من ألغاز. غلب أجدادنا القوط بحدّ السيف، ودان الفاتحون المسلمون للقوط برقّة الحياة وكنفها. تزوجوا منهم، وأخذوا طرائقهم، حتى أصبحوا والقوط سواء. كان باشكوال

يقول لي، وهو إذّاك رفيقي، للجغرافية ميسمها الذي يطبع ذهنية أصحابها. أغلبية القوط أسلموا واتخذوا اللسان العربي وسيلة للتخاطب والكتابة به والارتقاء من خلاله. سكنوا اللسان، وأسكنوه نظرتهم للحياة وأسبغوا عليه رقتهم. نعم يَنظُمون الشعر على سَنن الخليل، ولكنهم يشعرون وفق طبيعة الأرض.. وليس شعرهم ما يُدوّن وحده، بل ما يتردد على الألسن دون أن يُحمل إلى طرف القلم، من آهات المنكوبين، وزفرات الموتورين، بلسان الحياة، من غير حذلقة ولا تصنُّع أو السير على سنن قوالب جامدة.

تولّى عبد الرحمن الحُكمَ وسنّه عشرون سنة، في جو مضطرب، حتى عزف أعمامه عن الإمارة، وولي أمورَ المسلمين لخمسين سنة حتى أضحت الأندلس موطناً للسلم والأمن والدعة والرخاء. لم يبلغ أحد مبلغه من طول المدة وفخامة المُلك وسؤدد السلطان. يظل النموذج الذي لا يُضاهى، مَن غلب الممالك المسيحية في الشمال، ودحر خطر النورمانديين أو المجوس، ودفع تهديدات الفاطميين، ووطّد عُدوة المغرب فدانت له. هو من نشر الأمن في ربوع الأندلس، وانتشر في عهده البناء والإبداع، ونمت الصنائع والحِرف، وهو من بنى الجوهرة الفريدة الزهراء..

ومع ذلك لم تكن الأمور في بادئ أمره مُيسرة. سعى أن يصالح الجميع، ويتصالح مع الجميع. بيد أن رغبة الصلح إن لم تستند على قوة أو انتصار باهر، نُظر إليها كتعبير عن ضعف، وقد يُغري ذلك الخصوم والأعداء بالاجتراء أو الازورار. بدأ مُلكه بهزيمة نكراء ضدّ الجلالقة، وكان لهذه الهزيمة أن تعصف بهيبة مُلكه بل أن تذهب به. تزعّم البعوث، وأحيط بجيشه بعد أن نُصب

لهم كمين، وقُتل زهاء خمسون ألفاً من المسلمين من جيش يضم مئة ألف. كانت الهزيمة فرصة لمن يضمر حسيفة بداخل الأندلس كي يَنسف الدولة، أو من الممالك المسيحية المتربصة كي تتحلل من الاتفاقات المبرمة.. غير أن ذلك لم يوهن من عزيمة عبد الرحمن الناصر. أدرك أن من يتولى الأمر ليس عليه أن يجازف بحياته، وأنه بمثابة القلب، إن أصيب انهار الجسد. أدرك أن الهزائم جزء من مهامه السياسية، وأنها إن وقعت، ليس لها أن تُثبط العزيمة، وليس للنصر أن يفضي للزهو أو يدعو للغرور.

لم يفلَّ ذلك من عَزمة عبد الرحمن الناصر. استخلص العبرة وأعاد الكرّة. نشبت معارك ضارية مع النورماديين أو المجوس وكان خطرهم أشدَّ لأنهم لم يكونوا يحاربون من مواقع ثابتة، بل كانوا يتوغلون بداخل الأندلس من الثغور بالبحر. لم يكن خطر المجوس خطراً عابراً، ولم تكن جحافلهم جيوشاً نظامية تُغير ويمكن أن تُصدّ من خلال كتائب وجند. كان خطراً مسترسلاً من قبائل الشمال وقد أخرجها صقيع أقاليمها من مكامنها، وأغراها اعتدال جو الأندلس وغنى أرضها. لم يعد الأمر كما كان من قبل لقرن حينما كان المجوس يغيرون من البحر. أصبحت لهم في بلاد الشمال مواطئ، وأخذوا يتغلغلون براً. ثم كان خطر الفاطميين. أصبحت لهم مواقع في عدوة المغرب، بإفريقيا بخاصة، وأنصار من قبائل كتامة الصنهاجية، وقوة بحرية ضاربة، وأضحى لهم، وهو الأدهى، عملاء في عدوة الأندلس إذ بثوا فيها عيوناً وجواسيس، وقامت حركات تمرد باسم دعوتهم كدعوة عمر بن حفصون الذي رفع لواءهم. كانوا يجنون قطوف ما زرعوا في بلاد المغرب. ضَعُف

شأن آل إدريس بفاس، وتولى الأمر أبو موسى بن عافية الذي والى دولة بني أمية، وعقد بنو رستم عن تيارت (تاهرت) الموالاةَ لعبد الرحمن، ولكن دعوة الفاطميين تغلغلت في النفوس عند ساكنة المغرب من البربر..

تَسمّى عبد الرحمن بأمير المؤمنين، ولم تكن التسمية اعتباطية، ذلك أن بريق حكم بني العباس ببغداد أخذ يخبو وتولى المماليكُ شؤونَ الحكم يعبثون بخلفاء بني العباس. التاث شأن الخلافة في المشرق واستفحل خطر الفاطميين في المغرب.

وتوالت الانتصارات بعدها. هزم عبد الرحمن الجلالقة، ودوّخ مملكة البنكش وأخضع مَلكها سانشو، ودحر المجوس وأرسل الإمدادات لبلاد المغرب لدرء خطر الفاطميين.

أدركت القِوى المحيطة قوته فأخذت تسترضيه. دانت له الممالك المسيحية المجاورة من بشكنس، وجليقية التي كانت تخشى غائلة قشتالة، وارتبطت البلاد البعيدة باتفاقات معه، وبعثت الوفودَ، ومنهم عظيم القسطنطينية وأخرى من الطليان والفرنج... لم يعد شيء يمكن أن يقع في الرقعة الغربية من بحر الروم، من دون عبد الرحمن الناصر. فاعل في لعبة، فاعل له اليد الطولى. أذكرُ ذلك اليوم المشهود لأنني من سهرت على تدبير مراسمه، بأمر من الخليفة، حينما وفدتْ بعوث كبير الروم، ملك القسطنطينية، وكان ذلك سنة 338. لم تكن قد ولدتَ يا زيري، ولعلك أن تكون قد سمعت عنه. لم يكن الحفل استقبالاً لضيف فحسب، أو استلام هدية، أو حتى عقد صلح، بل ترسيخاً لمنظومة الدولة. لم تعرف

دولة بني أمية في المغرب حدثاً بذلك الحجم. تلقّى الوفدَ القادمَ من عظيم القسطنطينية كبارُ القواد على مشارف قرطبة، ثم حرص الخليفة أن يبعث لهم أقرب الناس إليه، الخَصِيين ياسراً وتمّاماً، وهما المكلفان بالشؤون الخاصة للخليفة، وأصحاب الخلوة والحظوة منه، إمعاناً في التَّجِلّة والإكبار، ثم نزل الضيوف بمُنيتي هذه. وظلوا كذلك محجوبين عن الناس لأيام، يقوم بخدمتهم لفيف من الخدم والحشم. وانتقل الخليفة من الزهراء إلى قصر الخلافة بقرطبة ليستقبلهم. زُينت جنبات القصر بالستور والديباج والرونق. وقعد الخليفة في سرير الملك، وتوزّعْنا نحن الأمراء عن يمينه وشماله، وأنا بمقربة منه من اليمين، وتخلّف أخي عبد المالك لأمر، لسوف أحدثك عنه، ثم رجالات الدولة بمختلف مراتبهم. انبهر الوفد لرونق القصر وبهاء الحفل وعظمة الترتيب. قدّموا رسالة مَلكهم وهديته، وحدث شيء اختلف حوله الرواة، وزعموا أني قدّمت الفقيه محمد ابن عبد البر لينشد شعراً، وأنه لجلال ما رأى أُغشي عليه، ثم أني تحولت إلى عالم بغداد أبي علي القالي وهو أمير الكلام وبحر اللغة وقد حلّ بحضرتنا كي يتدارك الأمر، فلما وقف خطيباً ارتُجّ عليه... والذي حدث أني رتّبت مع المنذر بن سعيد أن يهيئ خطبة حفظها وتلاها أمام محضر الخليفة، ولا يمكن لنص مثل ذلك أن يُرتجل. وهو نص يُعبِّر عمّا يُمثله حُكم الخليفة عبد الرحمن الناصر. هي خطبة لم تكن موجهة لضيوف لا يفقهون فحواها، بل للتاريخ يا زيري.. هي من تلك النصوص الخالدة التي تترجم عظمة أمة، وتَشهد على ملاحمها، مهما اعترى النص من اختلاق وشمله من تزيين وتعرض له من تنقيح. لا بدَّ للأمم

من علامات وللحضارات من آثار تدل عليها ويُستدل عليها بها. يوشك هذا النص أن يضاهي خطبة طارق بن زياد. أعرف أن طارق بن زياد لم ينطقها بالشكل الذي نقلها الرواة، ولكنها لسان حال أمة. لسان حال أمة تردد في السابقين ولسوف يتردد في اللاحقين. وهل يمكن أن ينفصل مصيرنا ومصير البربر؟ نحن وإياهم سواء، دماؤنا ودماؤهم ممتزجة ومصيرنا واحد، وأخشى يوماً أن يُفرَّق بيننا وتستشري دعوة تؤلب بعضنا على بعض.

أريدك أن تنقل طرْفاً من الخطبة التي تُليت بمحضر الخليفة عبد الرحمن الناصر، أكرم الله مثواه، في هذه المذكرات. أريدك أن تنقلها، بَرّاً بوالدي، وشهادة للتاريخ. خذْ الرق عن يمينك فلقد أمرت الورّاق أن ينقل نسخة منها. اتلُ النص بتأنٍّ يا زيري، وانقلْ ما تراه مُعَبّراً. على رِسلك، وأحسن مخارج الحروف. إني لَمصيخُ السمع:

«وإني أذكّركُم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمَّت شعَثَكم، وأمّنت سِرْبكم، ورفعت فَرَقَكم، بعد أنِ كنتم قليلاً فكثّركم، ومُستضعَفين فقوّاكم، ومُستذلين فنصركم، وولاّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيامَ ضربت الفتنة سُرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَلُ النفاق، فاستُبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيُمن سياسته إلى تمهيد كَنَف العافية بعد استيطان البلاء. ناشدتكم الله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكةً فحقّنها، والسُّبل مَخُوفَةً فأمّنها، والأموال منتهبَةً فأحرزها وحصّنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمّرها، وثغورُ المسلمين

مهتضمةً فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم. ناشدتكم الله، ألم تكن خلافته قُفلَ الفتنة بعد انطلاقها من عِقالها؟ ألم يتلافَ صلاحَ الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ولم يَكِل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره بالقوة والمُهجة والأولاد، واعتزل النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدّعة وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة، بطَويّة صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدّتها، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وبلمّ أمير المؤمنين لشعَثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدةً عليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمةً إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم، جملة وتفصيلاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، صدق الله العظيم».

أحسنت يا زيري. رحم الله المنذر بن سعيد البلوطي. كان من أجَلّ فقهائنا وأنبل علماء حاضرتنا. أُعجِب الخليفة بالخُطبة، وأمرني بأن أضع يدي على صاحبها، وولّاه بعدها قضاء الجماعة بقرطبة. عرفته وأنا ولي للعهد، وعرفته وأنا خليفة. كان قوّاماً للحق،

واسع المعرفة، غزير العلم، ورِعاً تقياً، استعافني القضاء فلم أعفه إلى أن لقي ربه. وقلّما وقفت على من يزهد في منصب أو يَستعفي من جاه. كان مثلك من البربر وقلّما حذق اللسانَ العربي أحدٌ مثله.

نعم، أنا من دبّر الحفل، وهيّأ المنذر بن سعيد ليتلو خطبته. لم أرد أن يكون أبو علي القالي صاحبَ هذه المكرمة لأني أؤمن بعظمة المغرب، وأعرف زراية المشرق بنا، ولعلهم لم يأخذوا بالاعتراف بنا إلا بأَخِرَة بعد ما حلّ بهم من الهوان وشملهم من ضعف.. كان عبد الرحمن الناصر يدرك ذلك، ويدرك تحرش الفاطميين، ويرُدّ عليه بسلاح القوة، وكنت أريد سلاحاً آخر، سلاحاً مكمِّلاً لسلاح عبد الرحمن الناصر. كنت وأنا ولي للعهد، وزيراً للخليفة وعوناً له، وصرت وقد وُلّيت الأمر، صورة له. لم أُرِدْني بديلاً، ولم أنتصب نموذجاً، بل كنت أُراني كبطانة ثوب، له مظهر، هو عبد الرحمن، وله مبطن، وهو محدثك والفاتح قلبه لك. نعم، السلطان قوة ومغالبة، ولكن نتاج ذلك ينبغي أن يكون معارف وفنوناً، وحِذق صناعة، وكَنَف عيش، وحُسن معاشرة، ولذلك كلفت بهذه السلاح الآخر، ولا أدري إن أنا وُفقت، سلاح المعرفة والفنون والعمران، وهذا الذي ألمعت إليه بالحديث عن نموذج الأندلس، من خلال تعايش أجناسها ومللها ونِحَلها..

لسوف أحدثك عن بعض ذلك، لأن من شرّ الأمور أن نعتقد لحظة أن الحُكم غاية لذاته. كلا، يا زيري، نحن أدوات ليس إلّا، والسعيد، السعيد، من يُوفّقه الله كي تتفتق ولاية حكمه عن استخلاص أصحاب المعرفة والفكر والصناعة والآداب، فلا يبقى من تاريخ الأمم إلا ما أبدعه أهلها وما أنتجه البررة من أبنائها، أما

الملوك فخَدمٌ للتاريخ وأدوات له. هل تعرف مقالة هذه الملك العظيم، عبد الرحمن الناصر الذي دانت له النفوس وخنعت له الرقاب وعنت له الوجوه وأوتي بسطة من الجاه والمال: لم أعرف من سعادة الدنيا إلا أربعة عشر يوماً. وهل أستطيع أن أقول ذلك؟ كانت أيام سروري مُنغصة بحُرقة وأسى وذكرى.. ولذلك لم تكتمل، وما الكمال إلا لله.

***

أدركت يافعاً أن ما يبقى من تاريخ الأمم إلا ما أبدعه أهلها، وأن عظمة الملوك من عظمة شعوبها، وأن السلطان، مهما كان له من إغراء، ليس إلا وشيعة[1]، وأن لا وشيعة من دون سدى ووشيجة، تلك التي تنسجها الأمم من خلال إبداعها وفنونها وآدابها وعلومها، وأن الذي يصمد أمام تقلبات الأحداث هو ما تنتجه الأمم من صناعات وتبدعه من أفكار، وأن الجيوش، على خطورتها، لا تصنع حضارة، وأن الانتصارات العسكرية واهية أمام تقلبات التاريخ. فكم من انتصار عسكري ينطوي على هزيمة حضارية، وكم من هزيمة عسكرية قد تكون باعثاً لهبّة حضارية..

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر بالمجلس الكبير على سرير الخلافة، حينما نودي علي، وقد وقف بجانبه شخص لم أكن أعرفه، وقف خانعاً، ورأسه منحنٍ وعيناه على الأرض.

قبّلت يد الخليفة ثم تراجعت إلى الخلف، وبقيت واقفاً إلى أن بادرني بالكلام. كان للخليفة أسلوب كي يجعل الشخص ينشرحُ فيُقبل على الكلام، وقد ينقبضُ الخليفة فيصيبُ الحصر محدثه، وقد يبث فيه الرَّوْع بنظرة أو حركة. كان الخليفة منشرحاً ذاك اليوم، وكان يريد لذات

(1) وشيعة: الخشبة التي يلف عليها سدى الغزل.

الشعور أن يَسْريَ إلى محدثيه. بادرني الخليفة بالسؤال:

- ألا تعرف العريفَ مَسلمة بن عبد الله؟

وأجبت على التو:

- لا، يا مولاي.

فعقّب الخليفة مسهباً ليرفع من شأن العريف ويُعظّم من المشروع:

- هو أعظم مَن أنجبته أرضٰ الأندلس وبلاد المغرب في خِطة المعمار، وقد عهدنا له أن يبتني لنا مدينة غير بعيد عن قرطبة. لم يعد القصر يتسع لنا وقد أحاط به البنيان، ولا مُنية الناعورة تفي بالغرض لكبر حاجات القصر.. وقد عهدت لك يا حَكم أن تتابع مع العريف اختطاط المدينة وبناءها على سفح جبل العروس. أريدها مشرفة على سهل الوادي الكبير.. وأريدها أن تكون أجمل ما حوت الأندلس من عمارة وأعظم ما علا بلاد الإسلام من بنيان، وأن تتضمن مدينتنا هذه ما احتوى عليه القصر الخلافي، من جناح السلطان وجِنان وخِطط... أريد من المدينة هذه أن تكون تجلياً للمعمار الأندلسي، لا نقلاً لبيزنطة ولا للشام وللأقباط. أريدها متضمنة لعبقرية المكان ولمن سكنه من بني الإنسان، منذ الرومان، والقوط والعرب والبربر.. وقد جعلت لهذا الأمر ثلث جبايتي.

قبّلت الأرض ثناء وعرفاناً للتشريف الذي خصني به الخليفة، وفعل العريف ذات الشيء. ثم تراجعنا إلى أن خرجنا. انزويت والعريف كي نُقلّب توجيهات الخليفة ظهراً لبطن، وكيف ننجز الأمر.

سألت العريف:

- كيف ترى هندسة المدينة؟

- مولاي، ليس لي تصور إلا ما وضعه الخليفة من توجيهات، أدام الله نصره وخلّد في الصالحات ذكره. عليّ أن أنتقل إلى المكان وأستمع

إليه. للأماكن روح وسر، وهي لا تُفشي أسرارها لأول وهلة.

منذ ذلك اليوم أصبح مَسلمة بن عبد الله خديناً لي.. لازمته ونحن ننتقل إلى سفح الجبل، ثم ونحن نصعد ربوته وننزل سفحه، أو نحوم في ذات المكان... يخطو الخطى، ثم يستسلم للتفكر.. لم يكن تحت سطوة الزمن. كنت أحيانًا أستثير حميّته:

- لقد تأخرنا فيما طلبه الخليفة منا. لا يسوغ أن يطول انتظار الخليفة..

وكم كانت دهشتي عظيمة لجواب العريف:

- أجمل الأشياء تلك التي لا تخضع لسطوة الزمن. أعظم الأعمال تلك التي تكون نتاج تروٍّ، بلا صخب ولا عجلة. كل تسرع ابتسار، ولكل أجَل كتاب.

ولعلّ الخليفة أن يكون عرف عنه ذلك فلم يُعجّله. حينما أتمَّ العريف خطاطته، وقبل أن نعرضها على الخليفة سألته في شأن المدينة المختطة فأجابني:

- ستكون بإذن الله كما أرادها الخليفة، نتاج هذه الأرض وما تعاقب عليها من أقوام. ستكون بحول الله، أجمل ما اختُط في بلاد الأندلس وقد اكتملت المعارف وحُذقت الصناعة...

توقف ثم أردف:

- إنما لكل كمال نقص، كما لكل نقص كمال.

سألته:

- أبنْ يا عريف.

وردّ:

- قلّما ازدهرت مدينة في جوار أخرى، كالشجرة لا تسمق بمحاذاة أخرى.

وعقبتُ:

- ستُحوَّل مرافق قرطبة إلى المدينة.

- غير أن لقرطبة ما لن يكون للمدينة. لها روح تلك التي يبعثها جامعها، وتلك التي تشيعها معارفها.. وهي أشياء لا تُستنبت. ثم إن...

وتوقف.

ابتدرته:

- أتمّ يا عريف.

- لسوف تكون كالغانية تغري الذئاب وهي بلا حياطة.

- حياطتها الجند.

لم يقل العريف شيئاً للخليفة مما بثني إياه. وأذن الخليفة ببدء الأشغال غُرّة 325. كنت أصرف الوقت، متفقداً للأعمال، من حَفْر ونَحْت للصخر والرخام والسواري.. وقد أوتي بالرخام من ألمرية بالأندلس وبأفريقيا من عدوة المغرب، بل من روما والقسطنطينية، وأتى العمال وأصحاب الحِرف من كل فجّ، وكان عدد البغال التي تحمل المواد يومياً ينيف على الألف، وجُلبت المواد من كل صقع من الأندلس، ونُحت الصخر، وصُقل الآجُرّ، وتعبأ الحرفيون والبناؤون من كل صوب وحدب من الأندلس والمغرب، بل من بقاع الدنيا. كانت أشغال البناء خلية نحْل لا تفتر.

واستمرت الأعمال لتسع سنين إلى أن اكتملت المعالم الأولى للمدينة، وتفضل الخليفة وسمّاها بالزهراء وتمَّ تدشينها في حفل بهيج سنة 333. دعْ عنك ما تردد من أقاويل من أنها اسم جارية، كلا، كل ذلك تخرّص من الرواة. سُميت كذلك تيمناً بالمدينة المنورة، مدينة الرسول عليه السلام. هي لن تبلغها نوراً لأنها مرقد خير البرية، وهي الزهراء لما يحفها من أزهار وأشجار ورياحين.. اكتملت معالمها من قصر الخليفة

المسمى دار الروضة، وجِنانها والخِطط المحيطة بها، وحدائق الطيور بمختلف أشكالها وبِرَك الماء.. سجّلْ يا فتى في صحيفتك ما تعرفه ولكني أريدك أن تحمله للأجيال المقبلة لأنه يعبِّر عن صورة الأندلس، صورة التوادد والتعايش. يعلو المدينة من باب الأقباء المفضي إلى باب السُّدة تمثال من المرمر لصورة مريم العذراء كي تحضن المدينة وترعاها.. نعم، لم يقبل بعض الفقهاء بذلك، وكان منهم من أغلظ القول بمحضر الخليفة كالقاضي منذر بن سعيد الذي صلى الجمعة وابتدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ (سورة الشعراء، الآية 127). ومضى في ذم البنيان، والدعاء إلى الزهد، ما أحفظ الخليفة. نادى علي الخليفة بعد الصلاة وقد استشاط غضباً، ولم أرَ بدّاً من إبداء الرأي بعزله. ولم يأخذ الخليفة برأيي. هي ذي الأندلس. تتزاوج الأديان وتتقارع الآراء بلا شنآن. وهو ذا عبد الرحمن الناصر. أسكنه فسيح الجنان.

كنت قد التمست من الخليفة الإذن باستضافة العالِم البحر أبي علي القالي، وهو كوكب العلماء في بغداد، كي تنهل الأندلس من علمه، وتكرع من أدبه، وتستوثق من اللسان العربي، وأذن لي رحمه الله. واستقبلته رفقة ثلة من رجالات الدولة والعلم، وقد حلَّ بثغر الأندلس، وقطعنا البر حتى حاضرة قرطبة، ونحن نتطارح الأدب والقريض والرواية، وشُدهَ لِما رآه من معرفة باللغة والآداب والعَروض. واستقبله الخليفة، وهشّ به العلماء، وما خلا مجلس ولا مسجد لم يُحدّث فيه، ومدحه الشعراء وأطنبوا، وكان من ذلك قصيدة للشاعر يوسف بن هارون قال فيها:

فـالشرق خالٍ بعده، فكـأنما ... نزل الخرابُ برَبعه المأهولِ
وكـأنه شمسٌ بدت في غربنا ... وتغيبت عـن شرقهـم بأفول

يا ألله. الدوام لله. نزل بالشرق الخرابُ وكان مأهولاً ولا أملَ إلا في حاضرة مغربنا. وهذه الرسالةُ الجسيمة من بعث مجد العرب، ورفع راية الإسلام والذود عن السُّنة، هي التي خففت عني ما لاقيته عبر مساري من كَدَر وما اعتراني من نُغص وما واجهته من محن وما اعترى خلافتي من تقلبات واكتنفها من صعاب.

استخلصت أبا عليا لنفسي، وتتلمذت عليه، واستمتعت بنوادره وجميل مجلسه وحسن حديثه.. جعل الأندلسَ دار قراره، وأيقن أنها حاملة مشعل المعارف بعدما نفق أمرُها في المشرق وخَفَتَ بريقها هناك، وأوحيت له أن يجمع معارفه في مؤلَّف، فكان **الأمالي**، مما كان يبثه في الأخمسة بقرطبة، وما يُمليه في المسجد الجامع بالزهراء المباركة. أدرجْ يا زيري في هذا الحديث ما خطّه أبو علي في مقدمة كتابه، عسى أن يتأثر اللاحقون أدبه ويعرف غيرهم سوق الآداب في حضرتنا، وما اضطلعنا به من دفاع على لغة الضاد وحمل رايتها.. لا بدَّ أن يَعرف لنا التاريخ ذلك. نحن رعاة التعايش، نحن حماة بيضة الإسلام، نحن سد مانع ضدّ الرافضة وما استحدثوه من أمر يهدد لحمة الأمة، ونحن حمَلة اللغة العربية. زيري، أيها الفتى البربري، هي لغتك، كما هي لغة أبي علي القالي وهو من الأرمن، كما هي لغتي أنا الذي تجري فيه دماء العرب والبربر والقوط..

اتلُ عليّ قول أبي علي في تأنٍّ.. إنّ من البيان لَسِحْرا، كما قال الصادق المصدوق:

«ثم أما بعدَ حمد الله والثناء عليه والصلاة على خير البشر صلى الله عليه وسلم، فإني لما رأيت العلم أنفسَ بضاعة، أيقنتُ أن طلبه أفضل تجارة، فاغتربتُ للرواية، ولزمتُ العلماء للدراية، ثم أعملت نفسي في جمعه، وشغلت ذهني بحفظه،

حتى حويت خطيره، وأحرزت رفيعه، ورويت جليله وعرفت دقيقه، وعقلت شارده، ورويت نادره، وعلمت غامضه، ووعيت واضحه، ثم صنته بالكتمان عمن لا يعرف مقداره ونزّهته عن الإذاعة عند من يجهل مكانه، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه، وأبديَه لمن يعلم فضله وأجلبَه إلى من يعرف محلّه وأقصدَ به من يُعظّمه (...) ومكثت دهراً أطلب لإذاعته مكاناً، وبقيت مدة أبتغي له مَشْرفاً، حتى تواترت الأنباء المتفقة، وتتابعت الصفات الملتئمة التي لا تخالجها الشكوك، ولا تمازجها الظنون بأن مُشَرِّفَه في عصره أفضلُ من ملك الورى، وأكرم من جاد باللُّهى[1]، وأجوَدُ من تعمّم وارتدى، وأمجدُ من ركب ومشى، وأسْوَدُ من أمر ونهى، سِمام العِدى، فيّاض الندى، ماضي العزيمة، مُهذِّبُ الخليقة، مُحكمُ الرأي، صادقُ الوأي[2]، بذال الأموال، محقق الآمال، مفشي المواهب، معطي الرغائب، أمير المؤمنين وحافظ المسلمين، وقامع المشركين ودامغ المارقين، وابن عم خاتم النبيئين، محمد صلى الله عليه وسلم، عبد الرحمن بن محمد، محيي المكارم، ومبتني المفاخر، الذي إذا رضي أغنى، وإذا غضب أردى، وإذا دُعي أجاب، وإذا استُصرخ أغاث، أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد، الإمام العادل، والخليفة الفاضل، الذي لم يُرَ فيما ما مضى من الأمراء شِبْهه، ولا نشأ في الأزمنة من الكرماء مثله، ولا ملك العبادَ من الفضلاء عديلُه، فخرجتُ جائداً بنفسي، باذلاً لحُشاشتي، أجوب متون القفار، وأخوض لَجَج البحار، وأركب الفلوات،

(1) للهى جمع لُهية: أفضل العطايا أجزلها.
(2) الوأي: الوعد.

وأقتحم العقبات، مؤمّلاً أن أوصلَ العلق النفيس إلى من يرفعه، وأنشرَ المتاع الخطير ببلد من يُعظّمه، وأشرفَ الشريف باسم من يشرفه، وأَعرض الرفيع على من يشتريه، وأبذل الجليل لمن يجمعه ويقتنيه، فمَنّ الله جل وعز بالسلامة وحبا تعالى ذكره بالعافية، حتى حللتُ فناءَ أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد، المبارك الطَّلعة، الميمون الغُرّة، الجم الفواضل، الكثير النوافل، البدر الطالع، الصبح الساطع، الضوء اللامع، السراج الزاهر، السحاب الماطر، الذي نصر الدين، وأعزّ المسلمين، وأذل المشركين، وقمع الطغاة، وأباد العُصاة، وأطفأ نار النفاق، وأهمد جمر الشقاق، وذلل مِن الخلق مَن تجبر، وسهّل من الأمر ما توعّر، ولَمَّ الشَّعَث، وأمّن السُبل، وحقن الدماء».

هو ذاك عبد الرحمن. حسبُك يا فتى. أراك حريصاً أن تقرأ ما خطه القالي عني. قُل إذاً ولا تُسرف. جعلنا الباري من المقبولين بجواره:

«وصحبت الجواد المُفضّل الذي إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا وهب أسنع[1]، وإذا أعطى أقنع، الحَكَم، فرأيته -أيّده الله- أجَلّ الناس بعد أبيه خطراً، وأرفعهم قدراً، وأوسعهم كنَفاً، وأغزرهم علماً، وأعظمهم حِلماً، يملك غضبه فلا يَعجَل، ويعطي على العِلاّت فلا يمل، مع فهم ثاقب، ولُبّ راجح، ولسان عضْب[2]، وقلب ندْب[3]..».

كفى يا فتى. كان رحمه الله يراني بعين القلب. بلغني حنينُه إلى بغداد وأنا إذّاك خليفة، فأمرت في طلبه وسألته إن قصّرنا في شيء،

(1) أسنع: أجزل العطاء.

(2) عضب: حاد.

(3) ندب: السريع إلى المكرمات.

وردَّ بصوت خفيض:

- وهل بغداد مما يُنسى يا مولاي.. لهفي على بغداد.

ثم استعبر وبكى كالثكلى حتى أبكى. ولقي ربه بقرطبة، وبها دُفن، وأوصى أن يُرفع على شاهدة قبره هذان البيتان:

صِلوا لَحْد قبري بالطريق وودّعوا   فليس لمن وارى الترابَ حبيبُ

ولا تدفنونـــي بالعــراء فـربمـا   بكى إن رأى قبرَ الغريب غريبُ

آه، لو كان يتسع لنا الوقت كي أحكي لك بعضاً من المسامرات التي كانت تموج بها مُنية الناعورة، أو تلك التي تقوم بالرُّصافة، أو بالمجلس الكبير بالزهراء، فيحضرها أهل الأدب وجهابذة العلم وأسنان المعرفة، من مختلف الملل والنِّحل والأهواء، في وئام، مهما اختلفت العقيدة وتباعدت النِّحْلة وتضارب الرأي، حتى إذا أذّن الفجر افترقوا بلا شنآن، مَن يؤم المسجد، ومَن يقصد البِيعة، ومَن يتبتل في الكنسية، أو من لا يقصد أياً منها لأنه دهري لا يؤمن بالحياة الأخرى... كنت اهتبلت حلول أبي علي القالي بحضرتنا لأتصالح مع باشكوال. كان يعيش ظروفاً صعبة، يتبلّغ بالتدريس في جامع قرطبة، وينال من ذلك فُضلة يستعين بها على صروف الدهر. لم يؤثّر ذلك عليه أو يَفُتَّ من عزمته. كان مثلما عهدته لامعاً وأضحى متنائياً. ثم كان ينطوي على خيبة. كان اكتوى بما اكتويت به، هجر الحبيب.. لم يكلمني في شيء، ولكن جعفراً أخبرني بكل شيء.. تولّه بجارية من البشكنس أعرضت عنه وكتب عن ذلك مصنَّفاً عن الحبّ وصنوفه، والهجر وضروبه، لم أقف عليه. كنت أود أن أقرّب باشكوال تارة أخرى، ولكن كيف السبيل وقد سوّدتُ صحيفته عند الخليفة، وجعلت جرثومة ابن حفصون تضطرب في أحشائه... كنت أرمقه من بعيد، أو أستمع لمساجلاته في جلسات السمر، وقلما بزّه متحدث.. ارتبط بصداقة

وثيقة بجعفر حينها.. وكنت أعلم أموره من خلال جعفر. لن ينقل التاريخ إلا عداوة جعفر لباشكوال، ولن يقف عند هذه الصداقة الوشيجة التي جمعت بينهما لفترة. كانا صديقين حميمين، ولم تفرِّق بينهما إلا السياسة. لم يقبل جعفر أن أقرّب باشكوال حين توليت الأمر، وتمادى في الوشاية وغلا في السعاية، وبلّغني من أمره ما أوغر صدري وشفّ قلبي.. كان لأمور هذه الدولة أن تعرف وجهة أخرى لو استقام باشكوال وجعفر على طريقة واحدة.. كان جعفر أقربَ الناس إلي، وكان يأبي أن يَقربني أحد إلا ممن يرتضيه. أضحيت أداة في يده، مثلما أضحى هو نفسه أداة للأقدار.

لو يعود التاريخ القهقرى، لو نستطيع أن نُمسك ناصية الزمن.. أذكرُ إحدى المسامرات المشهودة بقصر الرصافة، وقد حضر جمع كبير من العلماء، ومنهم أبو علي القالي وأبو بكر القوطية وربيع بن يزيد، وهو قاضي النصارى بقرطبة، ثم أخذ أبو علي يُحدّث عن أغرب الهجر، وتلا قصيدة يزيد بن الطثرية:

ألا يا صبا نجد لقد هِجْتِ من نجد

فهيّج لي مسراك وجداً على وجدي

ألا هل مـن البيْن المُفرِّق مـن بُـد

وهــل لليـل قــد تسـلفن مــن رد

وقـد زعــموا أن المُحب إذا دنا

يَـمَل وأن النأي يَشفي مـن الـوجد

بـكل تداوينا فـلم يشف مـا بنـا

عـلى أن قـرب الدار خير من البعد

علــى أن قرب الـدار ليس بنافع

إذا كـان مـن تهـوى ليس بذي ود

فبادره باشكوال بأبيات عن أغرب الوطء، حتى استغرقنا في الضحك. ما أزال أحفظها. ما أتلوها حتى يُسرّى علي وينجلي ما يعتريني من كَدَر. أتلوها عليك. اثبتْها في هذه الصحيفة إن شئت. كان باشكوال يتلوها دون أن يخالطه هزل:

سألت الله يجمعني بليلي — أليس الله يفعل مـا يشـاء

ويبطحها ويطرحني عليها — ويدخل ما أشاء فيما يشاء

ويأتي من يحـركنا بلطف — شبيه الـزق تمحضه الرعاء

ويُنزل بعد ذاك عميم غيث — يُطهّرنـا وقــد زال العنـاء

ويرسل مـن يؤدّيها نقوداً — ليُفْرحـها وقـــد تمَّ الهناء

ما أن أنهاها حتى استلقى الجمع على قفاه من الضحك، وكنت أخشى أن يغضب مؤرخُ حضرتنا أبو بكر القوطية لما هو عليه من وقار. كنت أعرف أن هزل باشكوال يخفي ألماً.

أمرت جعفراً أن يصطحب معه باشكوال إلى ميورقة وقد كان بها عاملاً يومها، كي يسلو من هجر محبوبته... لم يطق باشكوال النأي عن الأندلس. كان له حب آخر، مما سأعلمه... لسوف أحدثك عنه يا زيري..

ثم كان لي شغف بالمخطوطات أجمع نفائسها، وأستخلص من ينقلها، وكان أن بلغني أن أبا الفرج الأصفهاني قد جمع مؤلفاً سماه **الأغاني** فطلبته قبل أن يُعرف ببغداد، وأجزلت العطاء لصاحبه. جعلت

الفتى تليداً قيّماً على خزانتي، وقد ربتْ على أربعمئة ألف مخطوط.

هل تعرف ما يعتريني هذه الآونة يا زيري مما لم أجرؤ أن أُحدّث به الحكيم شرحبيل. خشِيت أن يظن بي الظنونَ ويعتقدَ أن رِئياً من الجن اعتراني.. تنتابني كوابيس يا زيري ولا أدري أيحق أن تثبتها.. أرى فيما يرى النائم أن الزهراء أضحت قاعاً صفصفاً، وأن حلقات العلم انطمست من المسجد الجامع، وأن ذكر الله لا يعلو مئذنته، وأن مخطوطاتي هذه التي أنفقت المال والجهد في اقتنائها قد أضحت نهباً لألسنة النيران.. ضع يدك على رأسي يا زيري، فما أنا إلا عبد من عباد الله، ابتلاه الله بهذا الأمر العظيم.. لا تخف.. اقرأ علي المُعوّذتين، يا زيري. بورك فيك يا زيري. شللُ جسدي أهون عندي مما ينتابني من كوابيس. قمْ بنا نصلِ العِشاء. تقدمْ للصلاة، ومُدّ لي، لا شُلّت عشْرك، ذلك الصفوان أتيمم به. أقم الصلاة يا زيري وصَلِّ بنا.

***

دُشّنت مدينة الزهراء في حفل بهيج. صلى الخليفة بها الجمعة، وكانت معالمها قد اكتلمت، من باب الأقباء المفضي لباب السُّدة، تتخللها الجنان، ومحلات الوحش في السياج، ومسارح للطير، تفضي بعدها للسطح المُمَرّد، وهو أجمل ما فيها، وهو مكان الاستقبال والاحتفال، يشرف على الروضة. كان بلاطه المرمر، وعَمَده من رخام، وزُين بالنقوش، وتتخلله البِرك العظيمة، والحياض الجميلة، وعَلَته التماثيل مما أحفظ بعض الفقهاء. رُصّعت أبواب الزهراء بماء الذهب، وحُشيت بالنحاس، وزُينت بالنقوش، وفي جانب أقيمت دور الصناعة للسلاح ولحُلي الزينة، وأوتي بالماء من الجبل في مصارف، تسقي جنانها وتملأ حياضها وتجدد بِرَكها. هي آية ولا تزال. حفظها الله وأبقاها ذخراً للإسلام.

ولكن الحياة لا تُبدي بهجة إلا لتخفي أكداراً. كنت وجدت العِوَض فيما عهد به الخليفة إليّ من شؤون الزهراء، وكنت أجد ضالتي فيما دأبت عليه من اقتناء المخطوطات، وفي اصطناع

رجالات الأدب والفكر.. كان الخليفة يمازحني: «إني لآسف يا حكم أنْ طال بي العُمر وحال بينك وبين تولي هذا الأمر»، فلا يسعني إلا أن أقبّل الأرض، وأدعو له بمديد العمر وأضرع له بموصول الصحة. ولكن شؤون السياسة غالبة وكدرها مُستحكَم. ثار أخي عبد الله وتشوّف للأمر، والفظيع أنه وقع تحت تأثير دعوة الفاطميين ومذهب الشيعة.. كان أكثرَ إخوتي ورعاً حتى لُقِّب بالزاهد، وكان أرجحهم عقلاً وأقربهم إلي وشَبَهاً من حيث الاهتمامُ بالمعرفة. لم يعهد له الخليفة بأمر يشحذ همته أو يصرف فيه طاقته. أعرض عنه الخليفة وظنَّ أنه سيكتفي برغد العيش عن التشوف للمعالي، شأنه شأن بقية الإخوة والأعمام والأقارب. ولكن عبد الله كان عالي الهمة، توّاقاً للمكارم، فلم يصطبر لحياة الدّعة والخمول، فمال إلى التمرد واستهوته دعوة الفاطميين.. فشا سر عبد الله وقُبض عليه، ولم يَرْع فيه الخليفة إلّا ولا ذمة.. كانت فترةً عصيبة. كنت معنياً بما يجري، لأن نجاح أخي عبد الله يعني القضاء علي وعلى الخليفة.. ولكني مع ذلك لم أستسلم لدعوة الثأر. ولو استبد بي شعور الانتقام، لخفف ذلك من حرقتي. كنت ألظى بما هو أمض، هذا الشعور الذي يجعل الأخَ يُعرض عن أخيه ويتنكر لوالده. أفتهون كل العلائق الإنسانية أمام إغراء السلطان؟ وكنت ألظى لأن الحدّ سيقام على أخي، وكنت ألظى لأني لا أستطيع أن أدفع عنه الأمر. أتتني أمه وتشفّعت بي كي أتوسل إلى الخليفة وأتشفع عنده. احتضنتها طويلاً وبكينا. قبّلتْ رِجْلي؟ ذكّرتني بالقرابة والدم والآصرة: «هو أخوك، يا حَكَم، فلا

تدعه يذهب إلى غير رجعة»، رددتْ غير ما مرة.. ولم أجد ما أردّ به سوى الآية: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. خرجت المرأة من مخدعي وابتدرني جعفر يحذرني:

- إيّاك أن تفعل يا مولاي. إن تفعلْ تُغضب الخليفة. الأمر جلَل، فلقد ارتبط بدعوة التشيُّع.

ولم أفعل. أتاني عند المساء وصيف يخبرني أن الخليفة يأمرني بحضور إقامة الحدّ على عبد الله أخي ولزومي جناحي حتى يأتيني واحد من الخصيان. لم أنم ليلتي تلك.. ولم أتناول طعاماً كأن الحدّ سيقام علي. وكان سيقام علي بنحو من الأنحاء. لا نتولى الأمر حتى يموت فينا كل إحساس إنساني وتتحلل كل علاقة اجتماعية إلى أن يسكننا الواجب، أو ما نظنه كذلك، ما قد يحيلنا إلى وحوش ضارية حين نغضب، وأخرى أليفة حين نرضى.. ومضى النهار ولم يأتني زائر، وعند الفجر أتى خصي يأمرني أن أسرع إلى المجلس الكبير، كأنما هو حفل بهيج. دخلت وألفيت القاعة مضاءة بالقناديل المُرصّعة والشموع المذهبة. كانت فارغة. وجدتني وحيداً. ساورتني الظنون. ومن يدري، فلعلّ الحَدّ أن يُقام علي، ولعلّ الخليفة أن يكون قد أُبلغ بزيارة أم المتمرد لي وتشفعها بي فغضب مني ويتخذني من أجل ذلك عبرة. بعدئذٍ أُدخل أخي عبد الله مكبّلاً يحوطه جنديان.. نظرت إليه ونكّست رأسي كما لو أني من تآمر عليه.. استجمع فُضلة من عزم وأرسل:

- أنا أخوك يا حكَم، وتجري في عروقي نفس الدماء التي تجري فيك، ولكني لم أصطبر لهذا الترف ولم أطق هذا الاستهتار..

ألم يكن خليقاً بالخليفة أن يجعل ما أنفقه على الزهراء في أكباد جائعة؟ أليس يوالي المسيحيين على المسلمين؟ أليس يحميهم ويسبل عليهم من رعايته؟ أليس يحارب المسلمين وأحرى به أن يتولاهم ضدّ الأخطار المحدِّقة بدار الإسلام؟

ولم أُحِرْ جواباً. لم يكن عبد الله طامعاً في الأمر فقط، بل حاملاً لتصور مغاير لنظام الحكم الذي استنّه الخليفة. كان يمثل فكرة منافية لمنظومة الحُكم. كان يمكن استئصال تلك الفكرة بالسجن أو النفي. ولكن الأمور أضحت من الخطورة كيلا تُجتثَّ بسجن أو نفي بل بالقتل. كي يكون عبرة.

شعرت بالعجز، لا لأني لا أستطيع أن أدفع عنه الموت، فلم يكن لي أن أقف ضدّ إرادة الخليفة، ولكني لأني لا أستطيع أن أرد. لو كان الحقد يملؤني لوجد الكلام إلى نفسي سبيلاً، ولكني لم أكن تحت أثر الحقد أو الموجدة بل الأسى، الأسى لفراق قريب، والأسى للعجز عن دفع الموت عنه، والأسى لأن شؤون السلطان تقتضي ذلك. كل كلام أضحى حشواً من القول. كنت أشعر وكأن الحد سيقام علي... سيُقتل شيء مني بعد حين.

وعنّ الخليفة في أحسن شارة محاطاً برجالات الدولة. لم يبدر منه أدنى هلع. جلس على سرير الخلافة. رفع يده كي أنتقل إلى جانبه دون أن ينبس بكلمة، وكأنما غيّر وضعي من متَّهم إلى مُدَّعي. ثم حرّك رأسه بحركة خفيفة ودخل رجل من الحشم. قرأ صكاً قصيراً يثبت تورط عبد الله في التمرد وموالاته للتشيُّع. راعني قول عبد الله بعدها. كنت أنتظر منه خطاباً كذلك الذي

واجهني به، فإذا هو يتشفع. إرادة الحياة غلبت في نهاية المطاف:

- مولاي، أنا ابنك.

صاح عبد الله مستعطفاً:

- وأنا الخليفة، ردّ عبد الرحمن. وتعرف حكم المفسدين في الأرض.

- ألا تشملني رحمتك؟

- مِن رأفتي عليك ألّا تألم حين يقام عليك الحدّ.

- مولاي، أليس الله غفوراً بعباده؟

- سبق السيف العَذَل. مُحدّثك ليس أباك، وإنما الخليفة، وأنت لم تَثُر ضدّ أبيك، ولكن على الخليفة. ومن واجب الخليفة أن يحمي أمور الخلافة، ويقمع من يريد بها سوءاً لأنها تاج الدين وعصمة الدنيا.

ثم رفع رأسه إشارة على أمر، ودخل خصي يحمل سكيناً. أدرك عبد الله أن الأمر جد فنطق بالشهادة. رفع الخليفة رأسه، ثم أمسك الخصيُّ عبد الله من خلفه، وأضجعه على الأرض، وتلّ جبينه كما لو هو شاة. أغمضت عيني. وللحظة سمعت آهة، آهة خفيفة. فتحت عيني بعدها ورأيت المكان مبرقعاً بالدم، ورأس عبد الله مفصولة عن جسده.

مُد لي، بورك فيك يا زيري، ذاك المنديل... يتوقد جسدي ناراً، ويتفصد عرقاً، مع أني لا أشعر بشيء..

كنت أمام أمر فظيع يا زيري...

تلك هي الرواية التي حكيتها لجعفر وهي التي أخذت عليها

نفسي، والحقيقة شيء آخر، يا زيري، أقولها لك، ولا أدري إن كان يسوغ أن تنقلها.. لا يمكن أن أكذبك وأنا من نادى عليك. لا يمكن أن أكذبك، لأني إذ أحدثك، أحدث نفسي كي تبرأ مما اعتراها، وتصفو مما كدّرها. الحقيقة شيء آخر. الخليفة هو من ذبحه بيده. هو من ذبح ابنه... دون أن يرفّ له جفن. حتى إذا أنهى فعلته، صاح «تلك أضحيتي للعيد، فليقم كل واحد لأضحيته...» وأوتي بالمتمردين، وأقبل رجالات الدولة على ذبح ذبائحهم... ومَن كان يقوى على عصيان أمر الخليفة عبد الرحمن؟ كان يريدهم أن يقتلوا أنفسهم أمامه. وقتلت نفسي بنحو من الأنحاء، ولو أني لم أذبح أحداً، لأني صغت رواية مغايرة لما جرى.. كنت إما أن ألتزم بالحقيقة، وإذّاك يتهاوى أمام ناظري صرح عبد الرحمن الناصر، وإما أن أُبقي على صرحه، وأكْذب نفسي..

ومع ذلك تصدع شيء ما في نفسي منذ ذلك التاريخ..

بعد إذ أنهى الخليفة فعلته، أمر قائدَ الحشم بألا يقام مأتم على القتيل، ولا يُعبّر عن حزن ولا يُرفع صراخ، وتدفن الجثة ليلاً في مكان مجهول، ولا يمشي في جنازته أحد. خرج الخليفة بعدها من المجلس، وحمل وصيفان جثة عبد الله ورأسه. ثم حُملت جثث باقي القتلى من المتمردين. بقيت لوحدي لا أدري ما أفعل.. لم يكلمني أحد، كما لو أنه شأن هذه القصص الإغريقية التي يتمثلونها ويُشخّصون أطوارها، وقد يلبسون أقنعة، حتى إذا انتهوا من تلك الأدوار عادوا سيرتهم الحقيقية. ولكني لم أكن أدري أين توجد الحقيقة وأين تقوم الملهاة. وكيف تكون نهاية حياة ملهاة

أو لعبة؟ خرجت والتمست حمّاماً وتقيأت. بادرني فتى كي أتأهب لصلاة العيد. كان اليوم عيد الأضحى، وذهلت عن الأمر. قصدت جناحي ولبست لباس العيد، ثم ذهبت بعدها إلى دار الروضة من الزهراء، أبارك للخليفة العيد، ثم قصدنا سوياً الجامع نصلي صلاة العيد، حتى إذا فرغنا منها، نَحر الخليفة شاتين، وقصد بعدها المجلس الشرقي وتلقّى به التهاني في انشراح وحبور كأن شيئاً لم يقع. كنت أثناءها جسداً بلا روح.

اعتزلت الناس لأيام بعدها. حذّرني جعفر أمر الخليفة الذي قد يعتبر الأمر عتاباً أو مغاضبة. أخفيت حقيقة ما جرى على جعفر. التمست الخروج لرحلة صيد.. أثخنت غرباً نحو إشبيلية. تعللت بصحتي الضاوية وما أعانيه من ربو كي أقصد دفء إشبيلية.. ذكّرني سفري برحلتي إلى عدوة المغرب. كان سفري آنذاك سُلُواً وأضحى اليوم عذاباً. تقمصت دوري آنذاك كوليٍّ للعهد، وتبيّنتُ بعد مقتل عبد الله كم هي ثقيلة تلك الرسالة التي أتهيأ لحملها. وددت لو كنت خُلواً من الأمر، لا لي ولا علي. فتى يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. بلغتني إثرها رسالة من أمي مرجانة. كانت رسالة مقتضبة لم أستشف معناها. «من المصونة مرجانة، إلى وريث السر، وخليفة ولي الأمر، الحَكَم، شدّ به أزر سيده، خليفة المسلمين وأمير المؤمنين، عبد الرحمن الناصر، دام ملكه، وخلّد في الصالحات ذكره، وبعد، فإن من البُعد الجفاء، ومن العزم الحزم».

أسلمت الرسالة إلى جعفر. قرأها، ثم عقّب:

- مولاي، ينبغي أن تعود إلى قرطبة.

ردّدت وأنا يستطيرني الغضب:

- ليس لي ما أصنعه بقرطبة. تعبت من قرطبة. من أفراحها وأتراحها. من أراجيفها ودسائسها. من القتل والدم والغيلة... أريد أن أعيش ككل الناس. أُقبرتْ طفولتي، وأُجهض حبي، ونُزع مني أي إحساس.. لست أوجد كإنسان، لست أستطيع أن أعبِّر عمّا يخالج نفسي من أمور.

أنا مدين لجعفر أن ردّني لبعض القصد. قال لي في أدب ورقّة:

- على رسلك يا مولاي، اغْضُضْ من صوتك، فلا ينبغي لهذا الكلامْ أن يسمعه أحد، فلو سمعه أحد لانتهى إلى الخليفة. والدتك المصونة لم تبعث لك برسالتها إلا لأنه انتهى إليه شيء من أخبار تَهمك وإشاعات بشأنك.

عدت إلى قرطبة، وقصدت مجلس الخليفة بالزهراء. لم يُؤذَن لي أول الأمر وأدركت أن الخليفة مغاضب لي. أذن لي بعد المرة الثانية. قبّلت يده ولم ينبس بكلمة. كانت رسالة منه. نصحني جعفر أن أبدي خفض الجناح، وأن لا يبدر عني ما يشي بالغضب وأن أعتزل الناس فلا أخالطهم..

كان لا حديث في قرطبة إلا عن أخي عبد المالك وزوجه هند. كانت الإشاعات تسري بأن الأمور ساءت بينهما، وكان يتردد أنها ارتبطت بعلاقات جانبية. كانت تلك الأخبار تؤلمني. تؤلمني

لما آلت إليه هند، ويؤلمني لما صار إليه أخي عبد المالك من حزن، ولما تعرض له من خيانة زوجية. سألت جعفراً:

- ألا ترى أن ما يشاع عن هند محاولة للنيل منها، وتسويد صحيفتها لتفريقها عن زوجها؟

كان ردّه موجعاً:

- كل إناء بالذي فيه يرشح.

أمرته أن يستقصي الأخبار من عند عبد المالك نفسه.. كان عبد المالك تحت وقع ما يتردد. كان على علم بما يشاع من سيرة زوجته ويُكذّبه و يألم لما استقر في أذهان الناس. كان يرتبط بحب وطيد لهند وكان الحب قد أعماه عن النظر إلى الأمر. تُرى لو كنت ارتبطت بهند أكانت ستخونني؟ هل خيانتها لعبد المالك لأنها لم تجد ما إليه تتوق من سؤدد، أم أن الخيانة جِبِلَّة فيها؟ أم أن مرد نفورها إعراض عن السلطان وازورار من أهله؟

كنت الأثير عند عبد الرحمن الناصر، ولم يُغلظ علي في قول قط، وكنت أراه أجلّ ما جادت به الأرض في سَوْس الرعية وسياسة شؤون الخلافة. كان يمكن أن أتأذى لقرار يُقره، أو أغضب لأمر يأتيه، ولكني لم أجنح للتمرد قط إلا يوم أن نادى علي بالزهراء في جنانها، وكدت أن أفعل.. لأن الكيل طفح منذ مقتل عبد الله، أو منذ قتل الخليفة لعبد الله. كان الخليفة جالساً في مجلس وسط الجنان. كان الجو صيفاً. أذن لي. قبّلت يده. أشار علي بالجلوس. لم أفهم لِم أحاط نفسه بالخصيَين ياسر والمنذر... كما لو استشعر أني كنت سأرد أمره لو كنا على

انفراد. لم يبادرني بمقدمة وألقى قوله:

- ستذهب عند عبد المالك، وتبلغه أمري بالطلاق من هند.

لِم اختارني الخليفة من قبل لأكون الوسيط لزواجهما وهو يعلم حبي لها؟ ولماذا اختار أن يُحمّلني رسالة افتراق عبد المالك من هند؟ نظرت إلى الخصيين، وأيقنت أني لو أرد أمر الخليفة فهي هيبة الدولة التي ستتأذى ولن يغفر لي الخليفة ذلك ولسوف يتخذني عبرة. ثم استرسل غير عابئ بما قد يكون جاش في صدري:

- وستشرف على حبس هند في جناح خاص لا ترى فيه أحداً، ولا تدخل عليها سوى نساء الخدمة إلى أن تنتهي عِدتها، وتُرحّلها بعدئذٍ إلى جزيرة ميورقة.

لم يعد لي من خيار. وذهب تواً عند عبد المالك. أخبرته الأمر. بكى. دفع أنْ بأي حق يزجّ الخليفة بنفسه في حياته الشخصية وأموره الخاصة؟ لِم ينساق الخليفة للأراجيف؟ كان عبد المالك يحب هنداً، وأدركت حينها أنه لم يكن على علم بحبي لها. لو كان يعلم ذلك لحسب أنها مؤامرة دبّرتُها كي تخلص هند لي.. كذا شأن الحاشية، تريد أن تجد التبرير لما تهوى النفس، وتأبى التفسير من خلال الأسباب والمسببات ولا تستطيع التثبت. آلمني وضع عبد المالك، وانبعث مني صوت آخر غير صوت الأخ:

- أياً كان شعورك حيال هند، فلا يمكنك أن ترد أمر الخليفة. فهو يعلم ما لا نعلم، وهو المؤتمن على مصلحة بطانته.. أمرَك بالافتراق من هند، فلتفترق منها إذاً، ولا مُعقّب لحكمه.

حينما أتذكر أخي عبد المالك، غفر له وجعله من المقبولين، يقشعرّ بدني حين كان يمكن أن يقشعر، أما اليوم فروحي هي التي تقشعر وهي التي تألم. غار عبد المالك في السُّكر، واعتزل شؤون الدولة، ونفر من كل دعوة... مات في بداية ملكي، محزوناً مدخولاً. رحمه الله.

سجنتُ هنداً في قصبة إلى أن انقضت عِدّتها. رافقتها بعدها وصاحب شرطة قرطبة إلى ألمرية. ومنها ركبتْ سفينة حملتها إلى جزيرة ميورقة.. ما أزال أذكر نظرتها وهي تتقدم إلى قارب يحملها إلى السفينة. توقفت ثم نظرت إلي نظرة ملؤها الغضب، وأرسلت جملتها كأنها شفرة مُهنّد:

- خيبتَ ظني يا حَكم. كنت أظنك أسمى مما كنت أحسبه.

أكان يعزب على ذهنها أني كنت مأموراً لا غير؟ كان يمكن أن تدرك ذلك لأنها عارفة بطقوس دار الخلافة، فلِم تؤاخذني فيما لا حيلة لي فيه؟ أم كانت تؤاخذني لأني لم أقف ضدّ قرار الطلاق؟ وكيف تأسى للطلاق من رجل لم تحبه؟ أم أنها تأسى لأنها تُبعد ممن تحب؟ ومن تحب؟ نظرتُ إليها وتساءلتُ مع نفسي، هل هي الفتاة التي أحببت؟ كانت تفيض ثقة رغم أنها كانت تُساق إلى المنفى. إلى منفى سحيق، إلى منفى قد يطول. هل هو التحدي؟ هل هو الاستسلام للقدر؟ إلى الآن، لم أعرف ما كانت تنطوي عليه نفس هند وما اضطرب في وجدانها آنذاك.

ثم حدثت أشياء أخرى أغرت الأعداء بعبد الرحمن. بدا الجبل الأشم متصدعاً. فلّ منه تمرد ابنه عبد الله، وفلّ منه خيانة

هند لابنه عبد المالك وما تردد من إشاعات حول الأمر، وفشا خبر اعتزال الخليفة الناس، ثم إن المرض أثقل عليه. لم يعد يستقبل سوى فتييه ياسراً والمنذر.. نعم حضرت الحفل إذ أتت ملكة نبرة طوطة، وحفيدها السمين سانشو، تتشفع بالخليفة كي يسترجع سانشو مُلكه المنزوع من قِبل علية ليون وقشتالة . أعاد الخليفة سانشو السمين إلى عرشه، ونقضت الملكة طوطة العهد الذي قطعته مع عبد الرحمن أن تُسَلّمه الحصون في ثغور بلاد المسلمين، وكانت الآمرةَ الناهية، ولم يكن حفيدها إلا صورة. أدركتْ أن شيئاً ما يعتمل ببيت عبد الرحمن الناصر واهتبلتها فرصة لتنقض ما أبرمته.

كانت تلك الأحداثُ جميعُها قد فلّت من عَزمتي وأوهنت عضدي. كانت الحياة قد أظلمت من عيني، وكنت يومها قد بلغت الست والأربعين سنة من عمري ولم أقدّر أنني في موعد مع مرحلة من حياتي أجلّ خطراً من كل ما بلوته. كنت كالجنين أضطرب في بطن الحياة وآن أوان الاستهلال.

ما رأيك أن نستأنف حديثنا غداً. أصابني الإعياء وأريد أن أغمض عيني لسويعة وأخلو لربي بعدها أناجيه.. وأقدّر أنك تعبت أيضاً.. لا تُسرفْ على نفسك.. سأتم إملاء هذا الحديث قبل الرحيل.

***

كنت أتأهب للسحور لثاني يوم من رمضان المُعظّم من سنة 350، حين طرقت القهرمانة طرقاً خفيفاً ولكن متصلاً على باب جناحي من قصر الزهراء في أمر مستعجل تلتمسني فيه والدتي مرجانة.. أدركت للتو أن أمراً جللاً طرأ. قصدتها على سبيل السرعة. كان كل شيء يبدو عادياً. أدخلتني القهرمانة جناح السيدة الكبرى. كانت واقفة كمن هو مستغرق في التفكير. أمرتني أن أغلق الباب، حتى إذا هي قد فعلت، استدارت لتتأكد من أن لا أحد يسمعنا، ثم بثّتني الأمر:

- انتقل أمير المؤمنين إلى عفو الله.

ثم أضافت قبل أن يبدر مني أي ردّ أو تصرف:

- تجلدْ، ليس الوقتُ وقتَ جزع، فأنت منذ الساعة خليفة المسلمين وأمير المؤمنين. لا ينبغي للخبر أن يفشو قبل أن تتم بيعة إخوتك وأهل الحل والعقد. ينبغي أن تبعث رُسُلك لكبير الحشم وصاحب الجيش وأصحاب الشرطة العليا والوسطى والصغرى تُبلغهم النبأ وتأمرهم بأن يُطوّقوا سكن إخوتك وأعمامك ويمنعوهم الحركة.

أمرت جعفراً أن يذهب عند وجهاء الدولة يبلغهم الأمر كي

يتخذوا ما يلزم من إجراءات وما ينبغي من احتياطات، ثم أخذتُ البيعة، بعد الفجر مباشرة، من أهل القصر من الصقالبة والوصفاء والمُقدّمين والعرفاء. وفي الليل الموالي انتظم مجلس بفصلان الزهراء المقابل للسطح الممرد وقد ضمَّ وجهاء الدولة وأكابرها لأخذ البيعة. وقد خط نص البيعة القاضي منذر بن سعيد، وتلا نصها بالبهو الأوسط جعفر المصحفي وقعد به علية الدولة متقابلين بين المجلس الشرقي والغربي. كان أوّلَ من بايع الإخوةُ والتزموا أمام القاضي بالأيمان المنصوصة المتضمنة في عقدها، ثم بايع الوزراء وأولادهم وإخوتهم، فأصحاب الشرطة، وطبقات أهل الخدمة. وكان عيسى بن فطيس رحمه الله، وهو إذّاك صاحب الحشم، قائماً يأخذ البيعة على الناس. تخلف شقيقي أبو مروان عبيد الله، فبعثت له جعفراً، وألزمته الحضور بلا استعذار، وتخلف كذلك شقيقي أبو الإصبغ عبد العزيز، فأرسلت له قطيعاً من الجند أحضره وقدّم البيعة..

وانتظم الرسم على الترتيب القائم والسُّنة المتبعة من اصطفاف كبار الفتيان بالمجلس، والفتيان الوصفاء بالسطح، والفتيان الصقالبة بالفصلان، وكلهم يحملون سيوفهم، وعلى أثَرهم وقف الرماة بنبالهم وكنانهم. أما دار الجند المصاقبة فقد تعبأت بها جيوش رجالة العبيد وهي تحمل الرماح وتتخذ الخوذات، وبأيدها التِّراس، وعلى باب السُّدة البوابون، ومن خارج باب السُّدة فرسان العبيد حتى باب الأقباء، وبعدها انتظم فرسان الحشم وطبقات الجند والرماة، إلى باب المدينة.

كان للحفل أن يتم بتلك الطقوس، لأنها بها استمرارية الدولة و هيبتها.

وأُذِن للناس بالانفضاض وقد تمّت البيعة، إلا الأخوة والوزراء وأهل الخدمة فإنهم مكثوا إلى أن احتُمل جسد والدي عبد الرحمن الناصر إلى قرطبة للدفن هناك في تربة الخلفاء.

وخرجتُ لأول جمعة للصلاة بالجامع الكبير بقرطبة وتمّت الصلاة باسمي واتخذتُ لقب المستنصر بالله، واحتشدت الرعية بالجنبات تهتف باسمي وتدعو لي.

وقعدت بعدها أتلقى البيعة من الوفود، من طليطلة ومن قواعد الأندلس وأصقاعها. وكان ممن حضر مجلسي، مما أثلج صدري، باشكوال.. قبّل يدي، وكانت أول مرة يفعل، احتراماً لمكانتي، ولازمني في تلك الفترة. لم أعهد له بأمر، ولكنه كان مصاحبي إلى جانب جعفر. كنت في حاجة إلى عضد. نعم كنت أعرف أن الناصر قد ترك مُلكاً وطيد الأركان، متين البنيان، مهيب الجناح، ولكني كنت أعرف أن كل انتقال للسلطان يغري بالأطماع، مثلما يثير مخاوف ممن يمسكون بالأمر خشية أن يفقدوا حظوتهم ويضيع سؤددهم، وتتعرض مصالحهم للخطر، فيجنحون للتآمر. كان ينبغي أن أتصدى للأخطار الخارجية قبل أن أكبّ على ترتيب الأمور الداخلية.

بعد أن انسلخت فترة الحداد، أوفدتُ مبعوثاً إلى الملك سانشو أذكّره بالالتزام بتسليم القلاع التي التزمت بها جدته طوطة في عهد والدي عبد الرحمن الناصر. تجاهل سانشو مطلبي، فلم أرَ بداً من الرد. تهيأت للقوة ولكني جنحت قبلها للحيلة.

كان أردون ابن عم سانشو ينازعه الملك، ولذلك ذهب أردون عند غالب صاحب مدينة سالم، وهو من خيرة قواد جيشنا، وما أحسب أن تاريخ الأندلس عرف قائداً في مثل حزمه وحصافة رأيه

وبسالته. قصد أردون غالباً يلتمس العون من جنابنا كي يسترد ملكه، وأتى به سالم إلى حضرتنا، وبعثت كتيبة من الحشم لتلقّي الضيف أحسن استقبال، مع أخرى من الجند، ودخل قرطبة من باب السُّدة فالجنان. كان أردون يعرف أعراف الدولة الأموية، وكنت حريصاً على احترام الطقوس التي وضعها والدي المُنَعَّم، لأنه بها أبّهة المُلك وهيبة السلطان، ولأن الرعية تتسقط الأخبار وتُمحّص الأمور، وقد ترى في أي إخلال بالطقوس ضعفاً وأي تساهل في الأمر نكوصاً عن حُكم والدي غمرته شآبيب الرحمة والرضوان. كان ينبغي أن أبهر أردون، ومن خلاله غريمَه سانشو. كنت أعرف أن لسانشو عيوناً بحضرتنا، ولذلك كان ينبغي أن أُفرخَ روْعه وأثير فَرَقه.. بذلت لأردون من الرعاية وحسن الوفادة ما يليق بملك. وكان أردون من الذكاء ليردّ التحية بمثلها. كنت أتتبع مراسم الاستقبال مما كان يُبلّغ به صاحبُ الحشم جعفراً الذي كان ينبئني بما يجري. دخل أردون من باب السُّدة في حفل بهيج، وقد خرج الجند بمختلف طبقاتهم في أحسن شارة بجنبات القصر حتى باب الجنان، ثم سأل أردون عن قبر عبد الرحمن الناصر من الروضة فوقف على قبره وخلع قلنسوته، تأدباً وزلفى، وتلا دعواته. أمرت أن ينزل بقصر الرصافة، وكنت قد أمرت قبلها بتزيين أفنائه بأحسن الأفرشة والوطاء. قعد به أردون ليومين إلى يوم السبت وأذنت في استقباله. وأتى به صاحب الحشم وبمرافقيه إلى الزهراء بالمجلس الشرقي من السطح الممرد، مصحوباً بنصارى قرطبة يُبصّرونهم بمراسم الدولة وطقوسها، ومنهم وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة، وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة. ثم دخلوا من باب الأقباء إلى أن وصلوا باب السُّدة

ونزلوا من خيولهم، سوى أردون وصاحب الحشم محمد بن طملس اللذين بقيا على فرسيهما حتى بلغا برطل (بوابة) البهو الأوسط، فنزل أردون وقعد على كرسي أُعِدّ له مع أصحابه حوله، إلى أن أُذِن له وتقدّم نحو السطح، فلما بلغ المجلس الشرقي حسر رأسه وخلع برنسه ثم بقي كذلك برهة، ثم تقدم إلى السرير الذي كنت مقتعداً به، فخرّ ساجداً، واستوى وعاود الأمر، ثم تقدم وقبّل يدي، وعاد بعدها القهقرى، وجلس على مقعد وثير من وسائد مذهّبة وقد بدا عليه الانبهار. توالى مرافقوه في الخضوع والسجود وتقبيل يدي، وتراجعوا ووقفوا خلف ملكهم، وتقدم بعدها وليد بن خيزران قاضي النصارى بقرطبة ليكون ترجماناً. لم أنطق بأمر بادئ الأمر. كنت أودُّ أن أبثَّ الهيبة في نفس أردون والوفد المرافق له. كنت أريد للصمت أن ينيب عني. والواقع أني رغم أني تمرست بشؤون الدولة في عهد والدي، فإن الأمر بدا لي جديداً. كنت أعرف الأنظار منصبّة علي حتى من الحاشية، وكنت أعرف أنها ستجنح للمقارنة، ولذلك كنت حريصاً ألا تَزلّ قدمي في أي شيء آتيه، وبخاصة في بداية عهدي. نعم، كنت أحفظ ما ينبغي أن أقوله وأتلو ما ينبغي التحدث به لأنه لم يكن لي أن أزَلّ أو أخطئ. قلت كلاماً عاماً أرحّب به بالضيف وأعبّر عن استعدادنا لمساعدته، فوق ما يطلب. نقل الترجمان كلامي، وردّ أردون في حديث مسهب عن غدر ابن عمه له الذي خلعه من ملكه وفرض نفسه على الرعية التي لم تقبل به إلا خائفة. طمأنته وأخبرته أنه لسوف يجد من جنابنا فوق ما وجده من جناب والدنا المُنَعَّم.

قد تقول يا زيري، وما شأن الطقوس والوقوف عندها أمام أخطار محدقة.. لا يا زيري، الطقوس جزء من التدبير، بل هي القسط

الأوفر في حلّ القضايا على مستوى الملوك.. أمور الحرب والطّعان شأن العساكر، وشؤون الدهاء والكياسة شأن الوزراء، أما الطقوس فهي شأننا، وكذا ما ينقله الرواة ويخطّه الكتبة، فإنّا نوليه سابغ العناية. ليس هناك من حَكَم على الملوك إلا التاريخ يا زيري. العامة متقبلة، والخاصة متأرجحة وفق أهوائها ومصالحها، ولذلك نحرص أن نُقدم روايتنا، ولو منقّحة، لأن لا سلطان من دون أسطورة.

الذي حدث هو ما كنت أتوقع. بعث سانشو بسفارة يعتذر عن التأخير في تسليم القلاع، ويَعِدُ بأن يفعل. كنت مختلياً بالمجلس الغربي رفقة جعفر وباشكوال حين بلغني كتاب سانشو. سألت باشكوال عمَّ يراه. ردّ أنه لا يسوغ أن أنكث العهد الذي قطعته مع أردون رغم خضوع سانشو. ثم سألت جعفراً، وكان ردّه مغايراً:

- الذي يهم يا مولاي هو أن تُسلَّم القلاع، ولا شأن لمولاي بأردون. فصراعه مع ابن عمه شأن داخلي. لقد أحسن مولانا بتأليب أردون على سانشو، وأتت العملية أكلها..

لم أُقدّر أن الأمر ينطوي على اختلاف في الرأي والرؤية، بل على سباق بين غريمين، وأن جعفراً غير مستعد أن يشارك حظوته أحداً وبخاصة باشكوال لِما يعرف عنه من نباهة، مثلما أن باشكوال لم يكن مستعداً ليرضخ لجعفر لإيمانه بتميزه عليه. أضحى جعفر يتبنى مواقف مناوئة لباشكوال، أيّاً كانت، حتى لو كانت حصافتها بادية.

جنحتُ لرأي جعفر في قضية الصراع ما بين أردون وابن عمه سانشو. وكان أغلب القادة العسكريين يميلون لرأي جعفر. قال لي جعفر بعدها إن باشكوال اتّخذ رأيه لأصوله القوطية، وأنه يُغلّب

مَحْتِده على مصلحة الدولة الأموية. لم يقف جعفر عند ذلك، بل سوّد صحيفة باشكوال عند أصحاب الدولة فأخذوا يتوجسون منه. كان يخبرهم بأني لا أثق فيه وأضحوا لذلك يحذرونه.. ذكّر بذلك الشبح القديم، شبح ابن حفصون. لم يعلم باشكوال بشيء، ولم أقطع بشيء.

كان منطق الدولة يقضي بنهج ما دعا إليه جعفر، ولكن الأحداث سارت في اتجاه ما دعا له باشكوال. اتخذت أردون رهينة. بلغه ما أقدم عليه ابن عمه من عرض لجنابنا. مات أردون أشهراً بعدها، ولم يتم استجلاء الأمر إلى الآن. هل هي مكيدة لصحاب الشرطة كي يتخلص من عبء أردون؟ هل هو انتحار؟ هل مات أردون غمّاً؟ هل استطاع أعوان سانشو أن يصلوا إلى أردون ويسمموه؟ لا أعرف الحقيقة يا زيري. تُنسب إلينا، نحن الملوك، عدة أشياء، ولكننا لا نملك كثيراً من الأمر أمام خدّامنا، وأمام الظروف، أو التاريخ، وقد يداخل الغرور بعضنا فيحسبون أنهم الفاعلين لما يريدون.

تنصّل سانشو من وعده وقد مات غريمه ولم يعد يخشى خطره، ولم أرَ بدّاً من المواجهة العسكرية. بعثت بجيوش غالب، ودكت قوى سانشو دكاً. دخلت الممالك المسيحية طوراً من الاضطراب بعدها. كنت أتذكر وصية عبد الرحمن الناصر لي: «اسمع يا حَكم، نستطيع أن ننتصر على النصارى، ولكن لا يمكن أن نمحقهم. لا يستطيعون أن ينتصروا علينا، ولكنهم يظلون شوكة في حلقنا. لا يمكن الارتكان للقوة دائماً، زاوجْ بين الدهاء والقوة، واجعل القوة آخراً».

كنت كسبت أول اختبار، ما ضمن لي احترام قواد الجيش وهيبة رجالات الدولة لي، وانصياع العامة.

ثم كانت همهمات الفقهاء وتقولات العامة لأني لم أكن تزوجت آنذاك.. كانت تردني أصداؤها من الشرطة أو من أصحاب الخدمة من بيت الخلافة. كنت أقبرت أمر الزواج منذ قصة حبي لهند، وكانت حياتي في ظل عبد الرحمن الناصر سبحاً في بحر متلاطم لا يسمح أن تستقر فيه سفينة حياتي.. ولكني أضحيت خليفة، ومن واجبي أن أؤمِّن نسل بني أمية. كلمت جعفراً في الأمر، فعرض علي ثلة من الجواري... كانت إحداهن من المغنيات ممن وقعن في الأسْر وتعلمن الغناء والصنعة في بيتنا. كانت ذا صوت جَهْوري، وكان صوتها ما أغراني. كانت من نبرة، من مملكة البشكنس، وكان أعجبَ ما يروقها أن تتزيى بزي الرجال، ولعلّ ذلك ما حبّبها إلي. كنت أمازحها بالمناداة عليها بجعفر. اتخذتها قرينة. حبلت مني، وأنجبت مني ولدي عبد الرحمن. تلك صُبح. أصبحت أم ولد. وهل يستقيم هذا الحديث من دون صبح؟ وهل كنت سأصطفيك لتنقل هذا البوح لولا صبح؟ أقامت الزهراء حفلاً لا نظير له لمولد عبد الرحمن. جلست كما جرى على العادة والسُّنَن، في المحفل، والوفود تتوالى لتهنّئني، والشعراء يتلون القصيد، ثم أقامت مدينة قرطبة احتفالات متصلة، وغنّى الناس وطربوا من مختلف الملل والنحل، وفعلت مثلها مختلف أصقاع الأندلس لمولد ولي العهد.

***

كنت بعثت بجعفر في مَهَمّة عند قاضي إشبيلية، وحين عاد وجد البعوث تتأهب لألمرية. كان الخليفة الفاطمي العزيز بالله قد بعث لي برسالة يهجوني فيها ويُقذع القول، وقد أجبته برسالة مقتضبة حررها باشكوال أقول فيها: «قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك». كان باشكوال قد أشار بجواب آخر غير الهجاء في القول والردّ بالفعل وذلك بتفقد الثغور. كان لحدث النزول على ألمرية أن يمر مرور الكرام، فمن واجبي أن أتفقد أحوال الرعية، وأقف على الثغور. ما لم يستسغه جعفر أن يكون الاقتراح صادراً من باشكوال لأنه سيرسخ به مكانته وتزداد حظوته. كان رأي باشكوال تأمينَ الثغور في مواجهة الخطر الشيعي للردّ على الخليفة الفاطمي. وكانت حصافة رأيه ظاهرة. استشاط جعفر غضباً بمحضري، وزعم ألا شيء يستدعي خروجي من قرطبة إلى ألمرية، وأن الخطر الشيعي قد خفّ مذ حلّ المعز الفاطمي مصر قادماً إليها من أفريقيا وبنائه غير بعيد عن الفسطاط مدينة سمّاها بالقاهرة. كان فيما زعمه جعفر نصيب من الصحة، وكان فيما قدّم باشكوال جانب من الحكمة وحصافة الرأي وبُعد النظر. كان لا بدَّ من الخروج إلى العامة كي تطمئن، وكان من الضروري كذلك

تأمين الثغور. لم يكن وارداً أن أستخف بالخطر الشيعي.

لم أرتَب قط في ثقة جعفر وإخلاصه لي، ولكنه تحول شخصاً آخر منذ أن شعر بأن باشكوال ينافسه الحظوة وأن مكانته قد تكون مهددة. كنت محتاجاً إلى باشكوال في تلك الفترة، ولم أظهر حيطتي منه ولا تركتها تنضح. أوغر ذلك صدر جعفر، وذهب به الأمر إلى الاختلاق ضدّ باشكوال والافتراء عليه. ثم أوحى لقائد الحشم بأن يزعم بأن لباشكوال يداً مع النصارى. ما لم أكن أقدّر هو أن يتآمر جعفر ضدي، مما عَلِمته بعدئذٍ.. همس لصاحب المخزول والخزان، ابن حمديس، أن يعترض على الرحلة إلى ألمرية، والتمس ابن حمديس ملاقاتي ليخبرني باستحالة السفر إلى الثغر:

سألته السبب فردّ بالقول:

- ستظل قرطبة عورة وحِلّاً لكل غازي إن تحول الجند عنها.

- وما شأنك أنت؟ هذا شأن الجند.

- لا جند من دون مخزول.

لم أستسغ تنطع القائد وجراءته، أسررت الأمر في نفسي ورددت في هدوء:

- بورك فيك أنّك أمحضتنا النصح، وسنرى فيما أبديت من رأي.

اجتمعت بقائد الحشم طلمس وأمرته أن يهيئ الرحلة إلى ألمرية ويؤمّن الطرق المؤدية إليها، وبعثت إلى قائد القوات

البحرية عبد الرحمن بن رُحامس بأن يحرس الشواطئ من الجزيرة، بله من طريفة حتى مُرسية. لم يكن للرحلة أن تفشل. وقفت على ثغر ألمرية، وركبت سفينة أبحرتُ بها في عرض الشواطئ شطراً من نهار حتى يراني الرياس والبحّارة، كي يطمئنوا، وهتفوا باسمي، ثم أمرت ببناء قلعة بها على مرتفع ليتسنى مراقبة الثغور ورصد الأخطار.

عاد الموكب إلى قرطبة وقد ساءت العلاقة بين باشكوال وجعفر. علمت بضلوع جعفر في نسف الزيارة إلى ألمرية ولم أُبِن له عن شيء. كانت تواجهني أشياء أشدّ خطورة من أن أقف عند التنافس ما بين جعفر وباشكوال. بعثت البعوث إلى جهة البحر الأعظم وقد استفحل خطر المجوس إذ نزلوا بقلعة أبي دانيس الصنهاجي جنوب لشبونة ودوّخوا أرض إيبرية. في ذات اليوم الذي تحركت فيه البعوث نحو قلعة أبي دانيس، أعطيت الأمر لصاحب الشرطة الصغرى أن يقتل ابن حمديس وأن تدفن جثته في مكان مجهول. بعد شهر، أذيع أن ابن حمديس قُتل في الثغور في مناوشات مع مملكة ليون. استقبلتُ زوجته وأبناءه وقدّمت لهم العزاء في واحد من خُدّام دولتنا المشهود لهم بالإخلاص والمعهود لهم بالتفاني، وتلا قاضي الجماعة محمد بن اسحق كتاباً أطنب فيه حول مناقب ابن حمديس.

لم تخْفَ حقيقة الأمر على رجالات الدولة، بل كنت حريصاً أن ينتهي الأمر إليهم. كنت أريدهم أن يعرفوا جزاء من يتطاول على الخليفة. حدّثتك عن الغيرة التي تركب نفس كل من أوتي

ذرة من سلطان، بيد أن هناك شعوراً آخر قلما بَرِئَ منه من تولى سياسة الرعية وهو الذحْل[1] أو الموجدة. كنت وقد ذهبت إلى ألمرية لا أفكر إلا في ابن حمديس. لم يكن وارداً أن أترك الأمر بلا جزاء. التغاضي عنه هو مساس بهيبة السلطان. في ذات اليوم الذي قُتل فيه ابن حمديس، كنت في جناحي بدار الروضة من الزهراء أستمع إلى غناء صُبح وأستمتع بصوتها الجَهْوري وطربها الأخّاذ.. أدركت كم كان عبد الرحمن الناصر مصيباً في تنشئتي. نعم قتل الإحساس من قلبي ليهيئني لهذا الأمر الجسيم. تذكرته وهو يحدّث أخي عبد الله قبل أن يزهق روحه: «لقد تآمرتَ على الخليفة وليس على أبيك». تغاضيت عن الجانب الآخر، فيما كان أقدم عليه عبد الرحمن الناصر مع أخي عبد الله من ذبحه بيده، بل كنت محوته من ذهني. كان ابن حمديس قد تجرّأ على الخليفة وليس على الحَكم، وكان لزاماً أن يلقى جزاءه. لم يحرك موته في نفسي أية نأمة.

فَشَت الإشاعات عن أن ابن حمديس لم يمت في الحروب مع النصارى وإنما قضى غيلة. لم يكن ليُضيرني ذلك. ثم انطلقت الألسنة تقذع في ابن حمديس، عن سوء تدبيره واختلاساته وسوء تعامله مع أهل الخدمة. كان جزء كبير مما يتردد يطبعه الغلو.. أتت زوجه إلى باب الأقباء. أُخبرتُ بالأمر وأذنت لها أن تدخل المِشْور. كنت بالرياض حين دخلت هي وابنان لها. قبّلتْ الأرض. لم أنبس ببنت شفة. كان ذلك يكفي. أشرت برأسي وسحبها فتيان خارج الرياض. فهمتْ كلَّ شيء مثلما فهم كل من

(1) الذُّحل: الحقد المستتر.

بالبيت الخلافي كل شيء. كانت تريد أن تحافظ على ممتلكاتها من زوجها، وأن تحدّ من محاذير الثّلب، وترضخ للحكم الذي جرى لزوجها وتلتزم الصمت.

أمرت إمام المسجد أن يلقي خطبة يُشنّع فيها على المتقولين ويتوعد المختلقين، وأفاض الخطيب في الدعوة إلى التثبت، واستشهد بآيات من القرآن الكريم.. ثم أخذ يُعْلمهم خطر المجوس ويحذّرهم أمره، ويدعوهم إلى التعبئة وراء من استخلفه الله في أرضه. هدأ سيل القيل والقال.

أدرك جعفر أني أعرف وأتى ليطلب الصفح. مكث بباب السُّدة طويلاً كما لو أنه فتى وليس من علية القوم. لم آذنْ له. وعاود الأمر مرات إلى أن كنت خارجاً من باب السُّدة على صهوة فرسي، وارتمى على قوائمه حتى كادت الفرس أن تطأه..

نعم شعرت بنشوة. كنشوة السُّكر، ولو أني لم أعاقر الخمر البتة وكدت أن أحرّمها بالأندلس.

قرّبت جعفراً وأصبح نجيي. لم يعد شخصاً وإنما آلة. أُفرغ من إنسانيته ونُزع من استقلاليته، وذاك ما كنت أريده من أقرب المساعدين إلي. آمره بأمر فيأتمر، وأصدّه عن شيء فينطاع. كان يكثر التقول عن باشكوال، يغتابه ويُسوّد صحيفته، وينتهز أي خطأ فيضخّمه. كان يشعر بأني لم أعد في حاجة إلى باشكوال، ويعلم شعوري العميق نحوه. وكان من جهته يريد التخلص من باشكوال خشية أن أتحول إليه، لأنه يدرك أن الملوك متقلبون لا يستقرون على شيء. ثم عبّأ آخرين من أصحاب الخدمة كي

يغتابوا باشكوال وينقلوا أخباراً سيئة عنه، ولم يتورعوا في ذلك لأنهم كان يريدون التقرب من جعفر الذي كان عضدي وساعدي الأيمن.

أضحى باشكوال نفسه متنائياً. كنت أعرف أنه يعرف ما وقع لابن حمديس. لم أرد أن يبقى باشكوال حرّاً طليقاً. همس لي جعفر أن أولّيه خُطة الكتابة، وكانت تلك دسيسة منه كي يبعده عن شؤون السلطان فيضوي ثم يذوي بعدها في النسيان ويخلو الجو لجعفر. لم يسُؤني الاقتراح. كنت أريد باشكوال تحت عيني، من دون سلطان ولا أمر. بعثت إليه أنبئه أني قررت تعيينه صاحب خطة الكتابة. والذي حدث، مما لم أقدّره، أنه رفض، ولم يكتفِ بالرد مشافهة، بل بعث لي برسالة يعتذر عن عدم قبول الخِّطة لأنه ليس أهلاً لها.

راعني ذلك.. شعرت بالامتهان. فكرت في الانتقام. اجتراء باشكوال على الرفض لا يقل عن تطاول ابن حمديس. لم يكن من الصواب أن أجري ذات الحكم على باشكوال. كان علي أن أروّض الزمن، وكان الزمن حليفي لأنه في الغالب حليف صاحب كل سلطان.. كان باشكوال ذكياً وينبغي أن أتصرف معه بكثير من الذكاء وليس بالقوة وحدها. كنت أود أن أقول له، من خلال الفعل، بأني لم أعد الفتى الذي عهد، وشتّان ما بين ولي العهد وأمير المؤمنين. أوحى صاحب الحشم بالقضاء على باشكوال. صرفته قائلاً:

- باشكوال شأني، وسأدبّره لوحدي..

لم أكن أريد أن أقضي عليه. كنت أريد أن يُقر بالهزيمة ولو طال الأمد. كنت أريده أن يلظي بسوء المنقلب. أطلقت ألسنة السوء عليه، ثم قطعت جرايته، وبثثت العيون يرقبونه، ومحقت كل أمر يأتيه. قدّرت أنه لن يصطبر وسيأتي صاغراً يلتمس العفو.

ثم اتخذت قرار تعيين جعفر حاجباً وهي أعلى خِطة. كانت رسالة موجهة إلى باشكوال. أداتي في المُلك هي جعفر، ولم أكن لأخشى أمره لأنه كان مِلْكاً لي.

سنوات بعد ذلك وقد طهّر الله قلبي من الموجدة، وأنار بصيرتي ومحّص كثيراً من الأمر، رأيت فيما أقدم عليه باشكوال ليس تطاولاً، ولكن رفضاً لما آليت إليه. لم يقبل أن تمتد يدي لأحد أو تقضي على أحد. كان ركبني الزهو. ولكنه السلطان يا زيري، ولم يكن باشكوال ليفهم ذلك. ولم أغفر له آنذاك أنه لم يفهم. السلطان يحول بين المرء و نفسه، فما بالك بغيره. سوف أحدثك عن ذلك بعد حين.

***

عاث المجوس فساداً. دوّخوا بسيط إشبيلية من جهة البحر الأعظم، فخرّبوا البيوت وانتهكوا الحرمات، وأحرقوا البُسطاء[1]، واختطفوا النساء والصبيان، والأدهى أنّ سفنهم كانت تمخر عُباب البحر الأعظم وتتهدد بوارجنا وثغورنا. قررت أن أضع حدّاً لتحرشات المجوس. كنت أمرت جعفراً، قبل أن أتوجه بنفسي إلى إشبيلية لمواجهة خطرهم، أن يجد كاتباً لأم عبد الرحمن، صبح. اشترطت أن تتوفر في الكاتب الكفاءة والنباهة والعفة. كان موكبي على أهْبة أن يتحرك حين قبّل جعفر الأرض وذكّرني أمر الكاتب. سألت أسئلة عامة عن الكاتب فأطنب في امتداحه. أذنت أن يُسلّم علي، فتقدم شاب وسيم قبّل الأرض، ثم ارتمى على يدي يلثمها.. أمسك بها وقبّلها عدة مرات.. وأرسلت كلمة استحسان من قبيل:

- بورك فيك يا ابني..

لم ألحظ وذهني مشغول بالمجوس، سوى ظهره. كان محدودباً بعض الشيء. ثم تقدمت القهرمانة وقد حملت إلي الأمير عبد الرحمن فقبّلته. كان قُرة عيني، وكان الظل الذي أتفيَّؤه من

---

(1) البسطاء: جمع بسيط، وهي الأرض الواسعة.

هجير السياسة.

ثم فَصَل الموكب من قرطبة على قرع الطبول والدفوف ورفع الأعلام..

أثخنا في كورة قرمونة حين ناديت على جعفر وأنا على صهوة فرسي. تقدم جعفر على متن زاملة[1]، إلى أن أصبح بمحاذاتي، وتولى قريباً مني، ثم نزل من بغلته وأسلم لجامها لفتى، وأمسك رِكاب فرسي، تذللاً، وفرسي تمشي الهوينى.

سألته عن الفتى الذي دخل في خدمة صُبح، فأخبرني بأن اسمه محمد ابن عامر، وأنه من أصلٍ عربي، من القيسية، وأن جده كان ضمن جند طارق بن زياد واستقرت أسرته غير بعيد عن الموضع المُسمّى بالجزيرة، وأن الفتى لم يكن ليقنع بحياة الخمول في كورة صغيرة فارتحل إلى قرطبة التماساً للمعرفة، وأنه لزم جامعها ودرس به المذهب المالكي فضلاً عن الأدب والبلاغة، واشتغل كاتباً في باب القصر للمتظلمين. أطنب جعفر في خصال محمد بن أبي عامر. اكتفيت بالقول:

- امتحنْه وإن وجدنا عنده ما نرتجي رقّيناه، وجعلناه مؤدباً لولي العهد.

ثم صرفت جعفراً وأمرته أن يعود إلى قرطبة ليُصرّف الأمور في غيبتي. سحب زمام بغلته بعيداً حتى جاوز موكبي قبل أن يمتطيها.

استبشرت العامة من كور إشبيلية لحلولي بها، وتعبأ الناس مع الجند لتعقب فلول المجوس، وأغلقت جيوش ابن حُدامس، قائد البحرية، مصبّ الوادي الكبير حتى لا يتأتّى للمجوس القهقرى.

---

(1) الزاملة: بغلة قوية.

أضحى من العسير على المجوس أن يثبتوا وقد أُغلقت منافذ البحر دونهم.. كانت مطاردةً لم تخلُ من عنف.. كانت الانتصارات قد أثارت حَميّة الرعية، وشحذت الجند، فقتلوا من المجوس عدداً كبيراً، وقبضوا منهم أسرى عديدين. على هامش الحملة العسكرية وقد خفّت، كنت قد أطلقت عنان فرسي، في بسيط، قرب الوادي الكبير، كي أستروح وأتخلص من كل عبء. ذكّرني الركض بشبابي حين حللت بعدوة المغرب، في سهوبها، رفقة جعفر وباشكوال. استحببت الركض والريح تعبث بلباسي ونشوة تملؤني. ثم فجأة حمحمت فرسي وكادت أن تجفل. جذبت العنان، وألقيت النظر يمنة ويسرة. كنت وحيداً بعيداً عن الجند وبعيداً عن الحشم، ولا يرافقني فِتيْان. أشهرت سيفي وأخذت أتحسس المكان. كانت هناك غيضة[1] صغيرة قبالتي وقد تخللتها أشجار السنديان. نزلت من الفرس، وأمسكت العنان بيدي اليسرى والسيف بيدي اليمنى، وأنا أتقدم.. حمحمت الفرس مرة أخرى فتوقفتُ. تناهى إلي صوت خشخشة. لم يكن ليكون صوت حيوان من الوحيش، إذ لو كان لفرّ.. كانت خشخشةَ آدمي، خشخشة مجوسي مختبئ يتربّص، ومن الوارد أن يكون حاملاً لسلاح، أسيفاً أو رمحاً أو قوساً. أخذتُ أتقدم الهوينى، وفجأة عنَّ لي رأس نبال. توقفت. أصبحت تحت رحمته. كنت أضع بَيْضة[2] على رأسي. وهل سيصرف ذلك عني الأذى؟ جعلت الفرس حاجزاً بيني وبينه، ثم تحولت إلى الاتجاه المقابل... لم يتحرك الشخص وبدت وفرة شعره. تأكدت أنه مجوسي. استغربت أنه لم

(1) الغيضة: مجتمع الشجر قرب موضع الماء، أو الأجمة.
(2) البيضة: الخوذة.

يرمني بقوسه. كانت الخشخشة تؤكد أنه لا يزال على قيد الحياة. بقي احتمالان، وهما أنه لا يريد أن يرشقني بنبله، أو أنه لا يستطيع لأنه قد يكون جريحاً.. تبدد الخطر من ذهني. تقدمت في يسر وأنا أجعل الفرس حاجزاً. لم تعد له مسافة كافية كي يرشقني. وقفت على فتى يرتجف. كان مجوسياً. كانت يداه ماسكتين للقوس، وعيناه زائغتين. على جبهته جرح غائر وقد احتقن الدم على أطراف جسده. رفع رأسه نحوي ثم سقط القوس من يده. لم يُبدِ مواجهة. لم يكن يبدر منه أي عداء. كان يمسك القوس دفاعاً. ظل جسمه يرتجف. نزف حتى أوشك أن يذهب منه دمه. وضعت يدي على جبهته، فندّت منه صيحة ألم. احتملته، فاستكان لذراعي.. كان خائرَ القُوى. حاولت أن أُركبه فرسي، ولكنه لم يقوَ على ذلك. كلما احتملته كلما سقط على الأرض. أشار لي برأسه أنْ لا جدوى. نعم، كانت تنبعث منه رائحة عطنة. رائحة العرق والدم. رائحة من لم يغتسل لأيام، ولم يكن ذلك ليحول بيني وبينه. جعل ذراعه على كتفي، وأمسكت خاصرته بذراعي الأخرى. انتفت كل الحواجز. حواجز مسلم ومجوسي. مَلك وسوقي. خليفة المسلمين وشخص من المجوس. عربي ونورماندي. باغتنا المطر، وأخذنا نمشي من غير وجهة. لم تعد الوجهة هي الأهم. أضحى المهم هذا الالتحام بين شخصين يجمعهما رباط الحياة، بغضّ النظر عن المكانة والعقيدة واللسان والجنس. لم أتفف لرائحته، لأنني كنت في لقاء لشيء أعظم من ذلك، بُعدي الإنساني. شملني إحساس بالسعادة، ولم تكن تلك النشوة التي أستشعرها حين أحوز انتصاراً وأقضي على غريم أو

تتطأطأ الرؤوس أمامي وتُعفر الجباه. كان شعوراً هادئاً. كان شعورَ الطمأنينة. شعرت أن العطاء أعظم من النوال، وأن البذل أسمى من الأخذ. أنقذت حياة، ولا يهم أن يكون من أنقذت غريمي أو عدوي. شعرت أني أدّيت دَيناً. كان دَين باشكوال الذي أنقذ حياتي يثقل علي، لوضعي، وكان إنقاذي لمجوسي وقد تحللتُ من هيبة السلطان وطقوسه يفعم خاطري. أخذ المطر ينهمر، ولفت انتباهي هذا المجوسي، من دون اسم، وهو يخرج لسانه لينقع ماء المطر. كان عطشان. كنا نتقدم هازئين بالمطر. كنت أريد لذلك الشعور أن يمتد، رغم البرد والمطر وجوع المجوسي، ولكنه لم يدم لأنّ مقنباً[1] من الجند ومن عناصر الحشم والشرطة طوّقت المكان وهي تبحث عني. كانت على أهبة أن ترشق المجوسي حين صرخت فيهم:

- إياكم أن ترشقوا نبلاً أو تُلقوا رمحاً.

تسابقوا نحوي، وهم يُردّدون «مولاي» ويُقبّلون يدي، ويحمدون سلامتي ويُذكّروني المخاطر. كنت أمسك المجوسي بذراعي من خاصرته، ولم يعرفوا كيف يتصرفون وأنا أطوّق عدواً من سَفَلَة القوم. أقبل صاحب الخيل وتجرأ بالقول مما لا يتيحه وضعي:

- مولاي، هذا المجوسي؟

أدرك المجوسي كل شيء. أدرك وضعي، وأرادني أن أعرف من أنه أدرك. انحنى على يدي كي يُقبّلها، حتى إذا أمسكها نزعتها.. لم أكن أريده أن يفعل، إذ لو فعل لجرّدني من هذا الإحساس العميق الذي ملأني، الإحساس بإنسانيتي. لم يكن يضيرني أن يقبّل الآخرون الأرض أمامي، ولا أن يمشي جعفر ماسكاً ركاب حصاني، أما

(1) المقنب: جماعة من الخيل والفرسان دون المئة (من المقتبس في أخبار بلد الأندلس).

المجوسي فلا. أصدرت الأمر:

- خذوه عند الطبيب ليداوي جراحه، ولْتطعموه على مهل، حتى يستأنس الأكل.. لا تمَسّوه بأذى. ألحِقوه بصاحب الطراز.

استخلصت روجرس لنفسي، وكان ذلك اسمه، وأطلقت عليه اسم بدر. أصبح من خاصتي.

عدتُ إلى قرطبة وبشائر النصر تطالعني. خصّصت الزهراء استقبالاً فخماً لجنابي ولجندي.. وإذ غشيت باب الأقباء ممتطياً فرسي، وجدت الحاجب جعفراً ورجالات الدولة وهم ينحنون ويطأطئون الرؤوس، حتى إذا بلغت باب السُّدة، وجدت وصيفة تمسك ولي العهد عبد الرحمن. نزلت الفرس ولم أنزل لأحد إلا لعبد الرحمن. أمسكته من ذراعيه وحملته نحوي ثم قبّلته. تلا قولاً مما علّمه خدم القصر ونطقه بلكنة واستعصت عليه مخارج الحروف. نطق قائلاً:

- دمت يا أمير المؤمنين سالماً رالماً في خلَك و ترخالك.

وهو يريد «سالماً غانماً في حلّك وترحالك».

أمسكت يده ونحن نمشي، ثم أخذ يحدثني باللسان الروماني، وهو ما يتقن. ناديت على الحاجب جعفر، وحضر للتو وهو يلهث. انحنى قبالتي. وأصدرت أمري:

- ينبغي لولي العهد أن يحذق اللسان العربي. قُل لصاحبك ابن عامر أن يضطلع بتعليم ولي عهدنا العربية وآدابها، وأن يُعلّمه مخارج الحروف. لا يسوغ لمن هو من مَحْتدنا ألا يحسن العربية، وأحرى مَن اختصه الله بهذا الأمر.

ثم أمرت في طلب بدر. كان حلق شعره وتزيًّا بزي أهل الأندلس. أوتي ببدر. كنت أكلمه بالعربية، وأكرر في تؤدة مستعيناً بالإشارة. لم يستسغ رجالات الدولة ولا الحاشية هذا الحدب الذي خصصت به بدراً. اعتبروا الأمر نزوة. كان بدر يمثّل لحظة تحرري من كل القيود. كان بدر يجسِّد استعادتي لبُعدي الإنساني. كان بدر من خلّصني من دَين باشكوال. دين إنقاذ حياة. وددت أن باشكوال كان معي في رحلتي لإشبيلية وفي لقائي ببدر. كانت القطيعةَ بيننا مذ رفض خِطة الكتابة.

تقدمت أمشي بالجنان وأنا أمسك ابني عبد الرحمن ومن ورائي بدر، حتى دخلت جناح الحريم من باب الجنان. أراد وصيف أن يمنع بدراً من الدخول فصددته. كانت النسوة يهتفن بقدومي. تقدمت صُبح وقبّلت الأرض، ثم قدّمت يدي نحوها وأشرت لها بيدي للنهوض، تمييزاً لمكانتها ولأنها كانت حبلى. كانت نساء الخدمة قد بلّغت بالأمر فتى الخدمة فائقاً الذي نقل إلي خبر حملها. عبّرتْ عن سعادتها لعودتي مظفراً وشكرتني عن الخادم ابن عامر الذي كان في مستوى ما كانت تبتغي من كاتب.

كنت قررت أن أستقر بقرطبة أعالج أمور الدولة وقد استتب الأمن وتناءت الأخطار. كنت أود أن أنعم بابني وأسهر على تربيته بنفسي.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، صدق الله العظيم.

* * *

كان ما يردني من الأنباء عن ابن عامر يثلج الصدر ويفعم الخاطر. كان الجميع يشيد بكفاءته ويثني على نباهته وتجرده للمعالي. عبّرت صبح عن استحسانها للكاتب، وبدت معالم التغيير تظهر على ابني عبد الرحمن الذي تحسّن أداؤه باللغة العربية نطقاً ومعرفة وحديثاً. أما جعفر فقد كان مسروراً أنْ لم يُخيّب ظني. قررت أن أرقّي ابن عامر، فعيّنته قاضياً على المواريث بإشبيلية. ولم تكن الأخبار التي بلغتني عنه هناك مختلفة عن تلك التي ترددت بقرطبة. وحتى حينما بلغتني وشايات عنه، استقصيت الأمر واتضح أنها مغرضة. طلبت صُبح مني أن أعيده إلى قرطبة ففعلت، لأن الفتى أبدى كفاءة فيما عُهد له به في إشبيلية، وإخلاصاً لجنابنا وتفانياً في خدمتنا، فعيّنته صاحب الشرطة الوسطى بقرطبة.

ثم أكببت على أمور البلد الداخلية، لم أغيّر شيئاً مما وضعه والدي رحمه الله من سُنن الحكم، وتنظيم الخِطط. وتجردت للبناء، فوسّعت من مسجد قرطبة، وأتممت الظُّلة التي بدأها والدي كي تقي المصلين لفح الشمس في فناء المسجد، وزدت

من اهتمامي بالمخطوطات، واستقدمت العلماء والفقهاء، وأشعت فيهم ضرورة الاعتناء بالمذهب المالكي لوسطيته واعتداله وقيامه على عمل أهل البلد، من الاجتهاد في المعاملات، والإيمان في العبادات، ليكون درءاً لخطر الشيعة وتُرّهات أصحابها اللابسين الباطل بثوب الحق، والمتلفعين بالدعوة من أجل الدنيا، المتدثرين بالكتاب من وراء السيف، من يُسرُّون حُسُوّاً في ارْتغاء. وكان ممن حلّ بحضرتنا عالم المغرب الذي أتانا من القيروان ابن عبد السلام الخشني، وكان واسعَ المعرفة، غزير العلم، فقرّبناه وأجزلنا له العطاء. كنت أولي ما يموج بالمغرب فائق العناية رغم أن الشيعة تحولوا إلى مصر، ولكنهم لم يفعلوا حتى نصّبوا عميلهم زيري بن مناد الصنهاجي على أفريقيا، وانحصر نفوذنا في قبائل زناتة من المغرب الأقصى.. كنت أرى أن الصراع مع الشيعة ليس عسكرياً فحسب، ولكنه حضاري بالأساس، لذلك سعيت أن أكسب رجالات المغرب من ذوي النفوذ والحظوة والعلم والمعرفة. وحتى البورغواطيون منهم، من أهل تامسنا، فقد ارتبطت وإياهم بعلاقات احترام، واستقبلت كبيرهم زمور بقرطبة، ولم أعلن ذلك علانية حتى لا يغضب العلماء الذين كانوا يرون في نحِلة البورغواطيين مروقاً عن الدين، وشِرْكاً لا تقره عقيدة المسلمين، مع أنهم كانوا يؤمنون بالإله الواحد، ويُجرون الصلاة بلسانهم البربري.

ونعمت بابني عبد الرحمن أستمع لمناغاته وألقّنه تاريخ أسرتنا وأوضاع حاضرتنا. ثم إني أخذت أشركه في ما أقوم به، أُحْضره في مراسم السلطان حتى يتهيأ للأمانة، ويطّلع على شؤون الناس وأحوالهم ويعرف رجالات الدولة وأمور الخلافة.

كان يثيبني بملاحته ويفعم خاطري بحديثه ويبهجني بتوقّد ذهنه. كنت أرى فيه صورة لوالدي تغمّده الله برحمته. ثم إن صُبحاً وضعت ولداً سميته هشاماً، فازدان بيت الخلافة، وابتهجت الزهراء، وشاع الفرح قرطبة وعمّت البهجة الأندلس.

في هذه الأثناء وقع شيء أثلج صدرنا، وغيّر الموازين في بلاد المغرب وهي ساحة صراعنا مع الشيعة، ودرعنا الذي به نحتمي، وحياضنا الذي منه نستقي، وذراعنا التي بها نبطش، وحائطنا الذي عليه نستند، ذلك أن أحد كبار القواد ممن والوا مذهب الدّعي عُبيد الله الشيعي، ومن بعده مولاه على بلاد المغرب، معد بن اسماعيل، وهو جعفر بن علي المعروف بالأندلسي لأصوله الأندلسية، انحاش إلينا. كان قائداً على امْسيلة من المغرب الأوسط، وكان يتشوف أن يكون يدَ الفاطميين على المغرب قاطبة. وكان الفاطميون قد عيّنوا زيري بن مناد عوضه، فأوغر ذلك صدره، فانقلب على الفاطميين ووالى جنابنا. وبعث المعز الفاطمي من مصر إلى حليفه زيري بن مناد يأمره أن يقتص من جعفر الأندلسي، فنشبت مواجهة بينهما في نهر ملوية، ووقع زيري وثلة من رجاله في يد جند جعفر الأندلسي فقتلوهم، وحزّوا رؤوسهم، وأتوا بهم إلى حضرتنا.

قد تتأفف من ذلك يا زيري، ولكنها شؤون السلطان وأساليب الحكم مع ما يستوجبه من قواعد الزجر.. سجّلْ في صحيفتك يوم أتى جعفر الأندلسي وأخوه يحيى لحضرتنا ومعهم بنو خزر من زناتة وهم يحملون رأس زيري بن مناد الصنهاجي، والاستقبال الذي خصصناه لهم ها هنا بالزهراء العامرة. كان مثلما قال مؤرِّخو حضرتنا، من الأيام العُقم في اكتمال حسنه

وجلالة قدره، أي من الأيام الفريدة التي لا يجود الزمان بمثلها.

كان يحيى قد حلّ بمرسى محملة، وبنو خزر الزناتيون بمرسى ألمرية، وبعثت لهم صاحب المخزول ناجيت بن محمد لاستقبالهم، أما جعفر وقد حلّ بمرسى زليانة من كورة ريّة بإقليم مالقة، فقد بعثت بابن عامر كي يستقبله لمكانته. والتقت الوفود بفَحص السُّرادق من أرباض قرطبة. ثم شيّعهم قائد الجند أحمد بن سعد الجعفري وهو يحملون رأس زيري في قناة مع مئة من رؤوس المتمردين الآخرين، إلى أن بلغوا باب السُّدة من قصر قرطبة، ثم أسلموها لفرسان الخُرس الذين حملوها عنهم. واستقبلتهم بعدها بقصر الزهراء وقد احتشد الناس، واصطف الجنود من باب الأقباء فالسُّدة حيث وقف البوابون والغلمان والوكلاء في أحسن شارة، فساحة الجند، من أصحاب الدّراق[1] والرُّماة، والمقاريف[2] بقلنسواتهم المخروطة وأصحاب الجواشن[3] وأصحاب التجافيف[4] ، والبنود الخافقات بالرسوم المختلفة، إلى أن بلغوا المجلس، وحضرتنا محاطة بالإخوة، والوزراء والكُتّاب وأهل الخدمة.. فمشى الوفد يتقدمه جعفر بن علي الأندلسي، فقبّل البساط، ثم بعدها يدي، وتلاه أخوه يحيى، وبعده أهل الخزر، الأسنّ فالأسنّ، ثم أذنتُ لهم بالقعود، وكلّمتهم كلاماً حسناً، وهنأتهم على حسن صنيعهم وجميل صاغيتهم[5] فأعلنوا الشكر والانصياع لنداء الجماعة والتنكب عن دعوة الضلالة، ونبذهم للتشيُّع وموالاتهم للسنّة والجماعة..

---

(1) الدّراق: جمع درقة، الترس من جلد.

(2) المقاريف أو الأقاريف: لباس للرأس مخروطي الشكل.

(3) الجواشن: جمع جوشن، الدِّرع.

(4) التجافيف: ما يلبسه المحارب كالدرع ونحوه، أو ما يُجلَّل به الفرس من سلاح وآلة يقيانه الجراح في الحرب.

(5) الصاغية: ميلهم واستماعهم.

وحضر الحفل أجناد الكور المختلفة، بألويتهم وشاراتهم، فدخل حاضرةَ الزهراء جند دمشق وهم أهل كورة إلْبيرة، ثم جند حمص وهم أهل كورة إشبيلية، وجند قنسرين وهم أهل كورة جَيّان، ثم جند فلسطين وهم أهل كورة شذونة، فجند الأردن وهم أهل كورة ريّة.

وتلا الشعراء القريض بالمحفل، وكان منه قصيدة عصماء لمحمد بن شخيص من الطويل، وهو شاعر حضرتنا، ويمكن أن تنقلها من وثائق القصر عند خديمنا تليد صاحب الخزانة، أذكر منها ما يلي:

فيا للكِ من بُشرى سرورٍ تضمنت
بلوغ الأماني عن سُعود الطّوالع
لَعَمري لقد أبدتْ وقيعة جعفر
ويحيى إلى الشيعي أخرى الوقائع
تجلّي بها غيب المقادير مثلما
تجلت سطور الصّك من فض طابع
هما ما هما من وافدين تسابقاً
إلى ظل ضافي الظّل، ضخم الدسائع[1]

إلى أن يقول:

فقُل لبلاد الشرق هُبّي من الكَرَى
وإلا فانظري من طرْف يقظان هاجع

(1) الدسيعة: الجفنة الواسعة، أو العطية الجزيلة.

والمؤلم أن بلاد الشرق متمادية في غيّها، غائرة في ضلالها، مستغرقة في سباتها، ولا أثر لهبّة تَرد منها. لم يبقَ إلا بلاد المغرب حصناً لهذا الأمر، ورافعاً لمذهب السُّنة والجماعة، وقد استولى البويهيون على شؤون الخلافة ببغداد وفشا أمر الشيعة، وأخذ القرامطة يهددون حضن الإسلام بل الإسلام، لِما يقترفونه من آثام وما يرتكبونه من قتل وما يقومون به من دمار ويجترحون من الأعمال الشنيعة ما يُسيء للإسلام. لم يبقَ إلا نحن، في هذا العقد الفريد من العرب والبربر، من حاضرة الأندلس وبلاد المغرب. كان كل شيء يهون لولا هذا الأمل... نعم أرى الأخطار محدقة من كل جانب، وأستمسك بهذا البصيص.. وأعرف أدواء العرب وأدواء البربر.. يسكن العرب رسيس[1] جاهلية، ويغلب نزوع الحرية عند البربر حتى يفضي بهم إلى الفوضى، ولا يقبلون أحداً رئيساً عليهم، ويَصْرفون من العداوة فيما بينهم أكثر مما يصرفونها لعدوهم. هم لا يجتمعون إلا بدعوة. فاللّهم وحّدْ شمل العرب والبربر لهذا الأمر العظيم، في هذا الظرف الحازب، في هذه الرقعة من بلاد المغرب ليرفعوا راية الإسلام ويحفظوا بيضته. اللهم قيّد لهم من يجمع شملهم، ويوحّدُ كلمتهم، ويصرفُ عنهم شر الفتن والأهواء ما ظهر منها وما بطن، ويذود عنهم الزيغ، ويصد عنهم البغضاء ويعصمهم من الفُرقة، ويجنّبهم التيه. يا رب العالمين.

***

---

(1) الرسيس: الثابت أو القَوام.

لا تصفو الأحداث إلّا لتتكدر، ولا تلين الأمور إلّا كي تشتد، فلم يهدأ بال الفاطميين حتى اقتصّوا من الزناتيين وهم حلفاؤنا في بلاد المغرب. انطلق بُلْقين الصنهاجي، ابن زيري بن مناد، في هجوم محموم يحرّكه الثأر ضدّ زعيم زناتة محمد الخير. طوّق بلقين جندَ محمد الخير، ولم يجد هذا الأخير بُدّاً وقد أيقن أنه الهلاك، إلا أن يغرس سيفه في عنقه على أن يستسلم. تلك أخلاق البربر يا زيري، وأنت منهم، أصحاب شجاعة وإباء. سرى خبر مقتل محمد الخير الزناتي، وأضحى حديثَ العوام والخواص على السواء. قال الفقهاء كلمتهم عن عدم جواز قتل النفس. ولكنها قواعد الحرب.. تعقّب بلقين فلول زناتة قتلاً وسبياً. أثخن فيهم وتعقبهم ولم يترك مكاناً إلا لحقهم به، بتاهرت (تيارت) وامْسيلة وبجاية وبسكرة، من المغرب الأوسط، ولم يقف إلا بنهر ملوية عند تخوم المغرب الأقصى الذي بقي تابعاً لدولتنا.

والذي حدث أن محمد بن گنون الحسني من بيت آل إدريس، وكان نجمهم قد خبا، نهض بنواحي طنجة من أعمال أصيلة، ونقض العهد الذي كان يربطه بحضرتنا، فخفر الذمة،

ووالى دعوة الدّعي الشيعي. كان من خُلّاصه ابن عمه يحيى، رفيقي في الدراسة، هذا الذي فصله الخليفة عبد الرحمن الناصر، فأضمر السوء. كان من يُمحض محمد بن گنون النصح ويُطلعه على عوراتنا. أضحى الخطر الشيعي على مشارفنا وقاب قوسين من حضرتنا. بعثت بهذا الشاب الذي سطع نجمه، إلى عدوة المغرب، ابن عامر، وعيّنته قاضي القضاة على بلاد المغرب، ثم شفعت بقائد البحرية رُحامس، فنزل طنجة، وعزّزت بقائد الحشم ابن طلمس لقمع دعوة الدّعي گنون الحسني.

أمرت في عودة ابن عامر تحت إلحاح كل من جعفر الحاجب الذي لم يبخل في الثناء على هذا الشاب، وكذا صُبح التي التمست مني أن أرجعه إلى قرطبة حيث يكون أنفع. وبلغتني أنباؤه من بلائه البلاء الحسن في الحرب. جمع هذا الفتى إلى الأدب وحسن الإدارة، المعرفة بشؤون الحرب..

في تلك الأثناء وقع شيء فظيع، يا زيري قصم ظهري، وييّس دفق الحياة من وجداني، وغارت البسمة من مُحياي، وأضحت حياتي ومماتي سواء. أصاب الكَرْب بيتي منذ ذلك الحين، وخيّمت الكآبة على حياتي وسكن الحزن فؤادي. لم أعد أبتهج لشيء ولا آسى على شيء، ولا آتي من أمر إلا ما يمليه الواجب. تُذكّرنا النوائب ما عنه نذهل وهو أقرب إلينا من حبل الوريد. تذكرنا وضعنا وضعفنا... قد نغتر. ومن ذا الذي لا يغتر إن أوتي بَسْطة من المال والجاه.. مات عبد الرحمن، ابني ونجيّي وموئلي وسندي وأملي.. مات هذا الذي كنت أراه فأرى دفق الحياة وينبوع الأمل. مات هذا الذي كنت أرى فيه

جدي عبد الرحمن الداخل، وأبي عبد الرحمن الناصر، هذين النجمين المتلألئين من سماء بني أمية.. غار البدر ولمّا يكتملْ وقد صرفت له من عطفي ما يصرفه كل أب، وشفعت بما يمليه من يتهيأ لحمل هذا الأمر العظيم، من بالغ العناية وفائق الرعاية.. لن يسطع البدر بعدها يا زيري من سماء حياتي، وخَشْيتي من سماء بني أمية. عرفت الموت وتمرست به، ولكنه كان كغول حُذائي، ينال مني وأغلبه بالنسيان وأبرأ منه بالسلوان، أما وقد ذهب عبد الرحمن، فقد سكن الغول نفسي ونزع منها الحياة وحب الحياة. كيف أقف على جمال الطبيعة وشروق الشمس وبهاء البدر. كيف أطرب للحن يا زيري، وأنتشي لجمال قصيد وتلاوة قريض أو أتملى زخرف بنيان. كل شيء عندي سواء يا زيري، أو أضحى سواء.. لم أعد أرتبط إلا بالواجب وما يمليه هذا الأمر العظيم.. لا شيء يستحثني أو يستثير همتي سوى أن أؤدي دَيني للحياة وأضطلع بواجبي لشؤون الخلافة. صرت ميتاً كحي وحياً كميت، ولم يعد يهمني من الحياة إلا أن أمسح دمعة مكروب وأتصدق على محتاج وأبلسم جراح موتور وأفتح باب الصدقات وآمر بفتح الكتاتيب لأبناء الفقراء وأفكُّ رقاب الأسرى. ليس هناك من عِوَض لمَلك من هجير السلطان سوى أعمال البر. تُزري بالبنيان والفتح والنصر. يزدهينا ذلك أول الأمر، ثم نتبيّن بعدها أنّا كنا أدوات لا غير لغرورنا أو خدماً للتاريخ. ليس هناك من نصر أعظم من ذلك الذي نحوزه على شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا. ليس هناك من بنيان أعظم من التقوى يا زيري.

فلْتبكِ يا زيري، فليس هناك من دمع كي يُعزّي في عبد

الرحمن، وليس في تعاقب الأيام ما قد يبعث على السلوان وقد ذهب عبد الرحمن.

اصطحبت عبد الرحمن ابني، قرة عيني، لرحلة قنص. أغراني الربيع، ربيع قرطبة. حذرتني أمه البرد، فصددتها كي تقوى شكيمته. كانت صحته ضامرة، شأني لما كنت صبياً. كنت أريده أن يتمرس بالأخطار ويقارع الأهوال حتى يشتد عوده، ويغالب الضّوى[1] الذي كان به. وما أن فصلنا عن قرطبة حتى اعترته قشعريرة. سعى فائق، صاحب الطراز، أن يثنيني عن اصطحابه، فصرفته كي يغالب ابني الأعراض.. ضُرب الخباء، ولم يقوَ عبد الرحمن على الخروج. ذهبت للصيد، حتى إذا عدت أخبرني فائق أن الأمر اشتدّ على عبد الرحمن. دخلت عليه مخدعه، وكان ممتداً في فراشه يهذي، ما أن رآني حتى هبَّ من مرقده، كمن ينتظر أحداً وطال عليه نأيه. صاح على أثَري:

- أبَتِ لا تتركني لوحدي.

لم يكن كلامه مما علّمه الخدم. لم يحدثني بتلك الطقوس التي كان يُلقَّنُها، بل كلام ابن لأبيه..

وضعت يدي على جبهته، وكان العرق ينضح منه. ناديت على الطبيب شرحبيل.. وحضر، وأمر له ببعض الأعشاب، وما أن تناولها حتى اشتدَّ به القيء وبرّح به الألم. كانت أمعاؤه تتقطع. كان الأمر أخطر مما قدّرت، ولم يحسن الطبيب تشخيص الداء. صرف له من الأعشاب ما قد يهدئ الألم، ولم يهدأ الألم، وتوالى القيء. دلّك جسده بالزيت، ولم تهدأ حرارة جسده. ناولته عصير

(1) الضَّوى: النُّحال الناتج عن ضعف.

الأرنج، فعافه بطنه ولفظته أحشاؤه. كنت أجيل النظر بين الطبيب شرحبيل وابني، وأرى العجز من عيني الحكيم. كنت أسمع حشرجة ابني، فأبتهل لو هي انتقلت إلي، وفجأة نظر عبد الرحمن إلي نظرة توسل:

- أبتِ قُل للطبيب أن يغادر، لا أريد إلا أنت بجانبي.

أشرتُ برأسي للحكيم كي ينصرف، وأمرت فائقاً أن يُدخل موقداً من الجمر كي يَسريَ الدفء في الخباء، ويبقى غير بعيد من المدخل.

واسترسل عبد الرحمن بقولٍ هزّني:

- أبتِ لا تتركني أموت. لا أريد أن أموت.

لم أقدّر أن حِمام الموت كان يطوف في تلك الأثناء. كان قد تبدّى لابني قبل أن يتبدّى لي. كنت أريدني مؤدباً لابني في شؤون الحُكم، فانتصب ابني معلّماً لي في شأن الحياة. علمت منه العجز الذي يعتري كل إنسان ولو كان صاحب سلطان. همس عبد الرحمن في صوت خفيض:

- أنت الخليفة تستطيع كل شيء، فاصرف عني الموت. أنت ظل الله في أرضه، فادْعُ الله ألّا يأخذني إليه.

كنت أود أن أبكي، ولو بكيت لخفف ذلك الجزع عني. ولكن الساعة لم تكن ساعة سُلُو بل إنقاذ ابني. وقفت على عجز الطبيب، ولم يبقَ إلا دعوة الأب فقلت له:

- ستَبلّ[1] من مرضك يا ابني، وسنلهو كما دأبنا، وستكبر يا ابني في حضني إلى أن يشملني الله برحمته، فتأخذَ عني

---

(1) بلّ وأبلّ وابتلّ، بمعنى واحد، شفي من المرض وبرئ.

الأمانة، وتكونَ كأجدادك الصناديد، وتحافظَ على زهرة الأندلس وأريجها. يلتقي أبناؤها جميعهم في حبها، مهما افترقت نِحلهم ومللهم. نعم لا يخلو هذا الأمر من نَغَص، ولكنك درجت على الجُلَّى[1] وأنت صاحبها، ونشأت في المكارم وأنت من مَحتدها.

خفّ عنه الألم، فنظر مستعطفاً إياي أن أحدثه بشيء، ولم أجد بُدّاً من أن أحكي له قصة جده عبد الرحمن الداخل، أتلوها عليك كما حكيتها له:

- انتقض أمرنا بالمشرق، ودخل بنو العباس دمشق وعاثوا فيها الفساد، وقتلوا من بني أمية كل من وقع بأيديهم، واختفى عبد الرحمن وسط الأعراب في بادية السّماوة. وحينما فشا أمره تعقّبه بنو العباس، وألقى بنفسه رفقة أخيه في لجة الفرات. كَلّت ذراعا أخيه من السباحة ووعدهما بنو العباس خيراً إن هما عادا أدراجهما.. وثق فيهم أخوه الصغير فقتلوه، ولم يثق فيهم عبد الرحمن فلم ينكص ظِهْريّاً. صحبه خادمه زيد، وكان قد شارك الفتحَ العظيم مع طارق بن زياد، وعلى علم بمهامه[2] الطريق ومعرفة بالقبائل. تولّى جدك عند أخواله من البربر، فأحسنوا مثواه. ينبغي أن أقول لك الحقيقة يا بُنيّ، لم نحسن التعامل دوماً مع البربر. سِمناهم الخسف، وعاملناهم كموالي، وجازينا قائدهم العظيم طارق بن زياد شر الجزاء. كان جدك يعرف ذلك، ولذلك قرّبهم وأعلى من شأنهم وقد تولى الأمر بالأندلس. هم عمادنا، هم ونحن سواء في هذه الديار، لا لأن دماءنا امتزجت، ولكن لأنّا، هم ونحن، حاملو هذا الأمر في بلاد المغرب. اذكرْ

(1) الجُلَّى: الأمر العظيم.

(2) المهامه: مسارب الطريق.

ذلك يا عبد الرحمن..

كان أغمض عينيه. شملته سِنة من نوم، وسرى فيّ برد الراحة. رفعت رأسي للسماء، وابتهلت إلى الله:

- ربِّ أنا العبد الفقير إلى رحمتك، الطامع في عفوك، المستجير بحماك، المتشفع بجاهك، فلا تمتحني في فلذة كبدي. إياك أرتجي، وببابك أقف، فلا تَكلني طرْفة عين. ربّاه، أنت مجيب الدعاء، أنت مجير الضعفاء، وأنا الضعيف أمام ملكوتك. ربي، هذا ابني، وخليفة أمري، ومَن أردتُه حاملاً لراية الأندلس، فحقق اللهم رجائي، إنْ يذهبْ، يذهبُ ما سقيتُ من غرس، وما أقامه أجدادي من بنيان. ربّاه، لا تقصم ظهري، ولا تفتَّ كاهلي، ولا تأتِ على أُسّي. أنا الطامع في رحمتك، الخانع لقضائك، المشرئبّ إلى جودك، ألستَ القائل وقولك الحق ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

أمسكت يده ثم أحنيت رأسي أتلو القرآن إلى أن تغشّاني النوم. استيقظت على صوت مؤقِّت الخلافة ممن يرافقني في حلّي وترحالي وهو يؤذن لصلاة الفجر. انتفضت. كان المكان دافئاً لموقد الجمر به.. سوى يد عبد الرحمن. كنت أمسك بها. ضغطت عليها وسرى فيّ البرد. نزعت يدي من يده فسقطتْ. حركتُ رأسه ولم يتحرك، وانبعثت مني صرخة: «يا ألله، الآن انقصم ظهري»، ثم أجهشتُ بالبكاء... دخل فائق فتى الطراز فوجدني ملقى على حضن عبد الرحمن وهو جثة هامدة. لم يجرؤ أحد أن يحركني إلى أن أتى قاضي الجماعة، وكان ممن يصحبونني، فاحتملني وهو يتلو الآية:

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

كانت نصلاً ينغرس في قلبي يُذكرني ما كنت أريد أن أسلو عنه. كان يؤكد لي موت عبد الرحمن، وكنت أود أن أسمع ما يُنفي موت عبد الرحمن. أن أستمسك بحبل واهٍ، من قبيل أنه نائم وسيستفيق، أنه مُغشى عليه وسينهض.. ولكنه مات. وسرى الخبر في الموكب، ونهضتُ وتجلدتُ، وتلقيتُ التعازي، ثم قصدت الزهراء. كان الخبر قد بلغها واتشحتْ بالبياض، لون الحزن عند بني أمية وطرفاً من بلاد المغرب. وتذكرت صُبحاً. آه يا صُبح، بأي وجه ألاقيكِ، وقد أسلمتني فلذة كبدك وهي تفيض بالحياة، وها آنذا أعيدها إليك وقد غاضت منها الحياة، وغاض مني الأمل.

ولا أقول يا زيري إلا ما يُرضي الرب، وإنا بعدك يا عبد الرحمن لمحزونون.

***

لم أعد الشخص نفسه منذ وفاة ابني عبد الرحمن، أسكنه الباري فسيح الجنان. آه، كم يعبث بنا الغرور ويستبد بنا الهوى ولا نعتبر إلا حين يمتحننا الباري جلّ وعلا.. وكنت في غنى عن هذا الامتحان. نعم، رُددت إلى بُعدي الإنساني. بدا لي كل شيء متاعاً زائفاً، ولكن هل كان علي أن أفقد فلذة كبدي كي أدرك ذلك؟ كان الثمن فوق ما تحتمله نفسي. أستغفر الله، وأتوب إليه.

اعتزلت الناس، ولم أعد أخرج لصلاة الجمعة بمسجد الزهراء إلا لماماً، ولا أحيط نفسي إلا بالمُرتّلين يتلون على مسامعي القرآن الكريم. أضحى ربيعَ قلبي وعزاء روحي. كنت أود أن أجد السلوان من صُبح، ولكن لأمر ما ألفيتها متنائية كما لو هي تُحملني مسؤولية وفاة عبد الرحمن. لم أجد العزاء في هشام عن عبد الرحمن. كنت كشجرة ذهب عنها رُواؤها كي أبذل له من الحب ما بذلته لعبد الرحمن. اتخذت له الفقيه الزبيدي مؤدباً، ولم أسْلُ عن عبد الرحمن...

سرّني، إن كان يمكن أن يسرّني أمر، أن أتاني باشكوال للعزاء. أُخبرت بمجيئه وأذنت له، واختليت به في رواق من جناحي.. لم ألتقِ به لعشر سنين. تغيّر بعدها. كلّمته كما يكلم رفيق

رفيقاً وليس حديث خليفة المسلمين لواحد من الرعية أو واحد من ذوي الخدمة. سألته إن كان له أولاد، وأخبرني أنه لم يتزوج. كان قد استقر بلوشة. بدا متأدباً وكأنه بذلك الأدب يرسم مسافة بيننا. كنت في حاجة إليه، في حاجة إلى أن أستمع لنصحه وجرأة قوله.. نعَم أخطأت في حقه، واعتبرت أن الزمن كفيل بأن يرأب الصدع بيننا.

وعدت إلى الواجب، أو أعادتني الأحداث إليه: خطر الشيعة المتربِّص.

كان ما يَرِدني من أخبار عن عدوة المغرب يملأ قلبي ضيقاً. ذلك أن أمر حسن بن گنون استفحل. كانت المسألة قضية حياة أو موت لأن سقوط المغرب الأقصى في أيادي الشيعة هو الخطر بعينه على الأندلس، وكنت أعرف ثبات زميلي يحيى على الأمر، وهو عماد حسن بن گنون ودعامته. لم يكن ممن يتنازل عمّا يراه حقاً أو يتراجع.

بعثت بصاحب الحشم محمد بن طلمس إلى عَدوة المغرب، واستقبلته قبلها بالمجلس وأمرته بالصفح لمن راجع نفسه والتجاوز لمن جنح للطاعة، وخلعت عليه منديلاً في حفل بهيج.. نزل سبتة والتقى جيشه مع قائد البحر عبد الرحمن بن رحامس، ثم يمم القائدان شطر تطاون وكانت فارغة على عروشها، وقصدا بعدها طنجة وهي معقل الغويّ الحسن بن گنون.. أساء أهلها الرد، فلم يرَ جيشنا بداً من رشق جيش بن گنون بالنبال، ففر الغوي خارج طنجة وتعقّبه ابن طلمس في الجبال.. خضعت المدينة قسراً ولكن قلوب أهلها كانت لگنون. انحاش الغوي إلى الجبال وكانت له بها معاقل محصنة، وجرت بها معارك ضارية، واحتلَّ عبد الرحمن بن رُحامس

أصيلاً من أعمال طنجة، وبها منبر كتبت عليه كتابات تُشيد بمذهب الشيعة ودعيّها معد بن اسماعيل، فأحرق قائد البحرية المنبر، وأقيمت الصلاة باسمي بأصيلا. تعقّب طلمس حسن بن گنون وقد تحصن بالجبال، وكان له بها دراية وله فيها أتباع. وقُتل من جيش طلمس خلق كثير. ولقي طلمس نفسه حتفه في مناجزة بفحص مهران على يد جند حسن بن گنون. ولم أرَ بدّاً من دعوة غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم، وهو القائد الأعلى، وأمرته، وقد بلغ مني الغضب مبلغه قائلاً: «سر سير من لا إذن له في الرجوع حياً ومنصوراً، أو ميتاً فمعذوراً، وابسط يدك في الإنفاق..».

المال عصب الحرب، والحيلة أداتها، والقوة وسيلتها. زاوجت بين الحيلة والقوة والجود. ترضيت من وَالَى جنابنا لأفُلّ من شأن گنون وأنصاره، وجنح إلى جنابنا صاحب فاس محمد ابن يحيى الصنهاجي، وأعلن حنون ابن عم گنون الولاء والطاعة، وانحاش لنا صاحب القرويين، وتولى عدد من البربر عن دعوة ابن گنون واستقبلتهم وأجزلت لهم العطاء، ولكن المعارك لم تخمد رغم ذلك، لأن محبة آل البيت استوثقت في نفوس البربر، وضلل الدّعي گنون جمعَهم، ولأن ابن عمه يحيى، من درست وإياه، كان يُثبته على الأمر ويُقدّم له النصح، وهو يعلم شؤون الخلافة وعوراتها ويعرف رجالات الدولة ومواطن قوتهم ومكامن ضعفَهم.. لم تعد المعركة عسكرية فقط، بل حضارية، وبعثت العلماء والشعراء والقضاة يُبصّرون أهل عدوة المغرب بالدين، ويفضحون دعوة ابن گنون.

ثم إني أوفدت القائد يحيى بن هشام التجيني صاحب ثغر

سرقسطة إلى عدوة المغرب أعزز الجيش هناك. أضحت جبهتنا في الشمال عورة..

بذل غالب جهده، وهو أحسن قوادنا، ولكن استماتة البربر ممن عانقوا دعوة الشيعة جعلت النصر عسيراً.. إلى أن قُتل يحيى. كان مقتل يحيى تحولاً. واضطر حسن بن گنون إلى الرضوخ فطلب الأمان وأمّنته.. ولم أكن لأفعل لو بقي يحيى على قيد الحياة.

وما أن بلغني الخبر حتى أذعته في مسجد قرطبة لصلاة الجمعة.

وكان احتفال عيد الفطر لسنة 363 احتفالاً على الغويّ. وأنشد الشعراء في حفل العيد بمحضري وأطنبوا، ومنهم شاعر البلاط بن شخيص إذ يقول ذامّاً لابن گنون:

أُشابةٌ تدّعي في هاشم نسباً
وما يَصحُّ لها في معشر نسبُ[1]

عُمْيُ البصائر لم يُسلسْ معاطفَها
إلى مساعي التُّقى دين ولا حسب

وزادها في عماها أن أولها
ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب

نشت مع الوحش في دهماء ليس لها
في غير حسو الحُسى رأي ولا أرب[2]

(1) الأُشابة الأخلاط من الناس، ومنه لا تشوبه شائبة، أي ليس به كدر.

(2) نشت، أي نشأت، والدهماء، عامة الناس، وهو تعريض بأهل المغرب الذين لا رأي لهم ولا عقل، بحسب الشاعر، سوى في أمر الحسو، أو الأكل والشرب ليس غير.

إلى أن يقول مخاطِباً أشياع الشيعة من آل إدريس ومَعد بن إسماعيل والفاطميين:

أكثرتَ في دولة المهدي من شَغَب فانظر إلى أي حال ساقك الشّغَبُ

ومن جميل شعره مُعرّضاً بالشيعة، رافعاً من شأن المغرب وفردوسه الأندلس وذوده عن حياض الدين، ورفعه لراية السُّنة، مثنياً على قائدها الفذ غالب، قوله:

وما ونت عَزمة الجند الذين إذا
ما صاح باسمك فيهم غالبٌ غلبوا[1]
وقد صفا لك مُلك الغرب أجمعُه
ودان مُنتزِح منه ومُقترب[2]
فما توقف جند النصر عن جهة
ضيمت بها مصر واجتُثت بها حلبُ
تقلّبُ الحال بالمخذول يخبرنا
أن الزمان بأهل الرفض منقلبُ[3]

وتلا الشاعر عبد القدوس بن عبد الوهاب شعراً حسناً من البسيط، تجده في هذا الرّق، ومن قوله مما أذكره:

يا آل ادريس قد أمْست منازلكم
مثل اسمه باختلاف الريح والدِّيَمِ

---

(1) وَنَت، فتُرت وضعفت، والعَزمة، القوة والشدة.
(2) المنتزح: البعيد.
(3) أهل الرفض، أو الرافضة، والروافض، تحيل على الشيعة، لأنهم كانوا يرفضون خلافة الخلفاء الراشدين عدا علي بن أبي طالب.

إذا يَمـر بهـا الـغـادي تُذكره

مـا صار يتلوه من عاد ومن إرَم

إن الإمـام إذا مـا صال قـام له

صرف الحوادث من خوف على قدم

قـد قدّر الله أن تحوي كتائـــبه

مُلك العراق ومُلك الشام والحَرَم

كأنْ به واردا ماء الفُرات ضُحى

والـــماء قـــد مـــزجتْه خيله بـدم

غفر الله لابن عبد الوهاب. كان يغلو في قوله، ولكنّا لم نرد في تلك الفترة أن نرى الحقيقة، وأردنا للكلام أن ينيب على الفعل، وللهوى أن يكون عوضاً عن الحق. قِلّة تبصر بعقولها، والسواد لا تبتغي إلا ما تهوى نفوسها لا ما يأمر به العقل وما تدعو له الحكمة، وقلما كان الشعراء صادعين بالحق. كان لهم أن يصدحوا بما نريد، وما تدعو له مآربنا، وتستلزمه أمور دولتنا ولو جافى ذلك الحقيقة. وذلك ما كنا نبتغي حينها.

ثم أمرت بأن يُؤتى بآل گنون وأن يُنزلوا بالحضرة من قرطبة، وأكرمت مثواهم وصنت حرمة أهليهم، وأحسنت وفادتهم، واستقبلتهم في الزهراء لحظوتهم، ومكانتهم من آل البيت.

هل صددنا الخطر الشيعي؟ كلا، أُخمد ولمّا ينطفئ. فجعفر الأندلسي وأخوه يحيى، لم يواليا جنابنا إلا ظاهرياً، ووقفت عيوننا على ما يضمران من دعوة الشيعة. أمرت بسجنهما. ثم

عفوت عنهما، بعد لأي، وأجزلت لهما العطاء، لأني قدّرت لو يَبلغ الأمرُ الفاطميين، فسيوظفون ذلك لحسابهم، وأما آل گنون، فلم ينحاشوا إلينا إلا لأنهم هُزموا، وظلوا يُضمرون الولاء لدعوة الشيعة. نصحني جعفر بأن أبعدهم من الأندلس ومن بلاد المغرب لأن قلوبهم لم تلن، ولأن أتباعهم من عدوة المغرب لم يندرسوا، وهم إلى ذلك يُثقلون على بيت المال، ويكلفون الدولة عُسراً. أذنت له في ذلك. أبحروا إلى أفريقيا، ومنها ساروا إلى الإسكندرية فالقاهرة حيث تلقّاهم المُعزّ بالحفاوة ووعدهم باسترجاع تليد ملكهم. صار لأمر الشيعة بريق في بلاد المغرب، وقد بدوا لكثير من العجم أنهم حاملو راية الإسلام.

كان النصر على الحسن بن گنون يخبئ الهزيمة. بدأت فترة لم أعد مالكاً فيها لشيء، ولا متحكماً فيها لأمر، وكان الجسد قد وهن والنفس خارت، ولم يبقَ منها إلا ذماء يحرّكه نداء الواجب ليس غير.

***

كنتُ بالجنان من الزهراء أتنزّه ذات يوم، حين رأيت بدراً يعدو نحوي من بعيد وفَتيان من الشرطة العليا التابعة لابن عامر يلاحقانه. وقبل أن يصل إليّ، اختطفاه وحملاه بعيداً عني. تناهى إلي كلام غير واضح.. «بصم بصم». أمرت في طلب ابن عامر. بدا وقد مثُل أمامي مكتملَ التجربة، واثق النفس. قبّل يدي ظهرها وراحتها. أمرته بأن يطلق رجالُه سراحَ بدر حيناً. أجابني متأدِّباً أنْ لأصحاب خدمته أخباراً من أن بدراً لم يبرأ من ولائه للمجوس وقد تراوده نفسه الانتقام ممّا قد يُعرّض حياتي للخطر، وذكّرني حالة جعفر الأندلسي الذي ظلَّ يضمر الولاء للشيعة، ووعدني أنه سيتابع الأمر بنفسه حتى يتأكد من حسن طوية بدر ويطلق سراحه إذ يُنهي البحث، ثم التمس المعذرة لما اضطُرّ إليه صوناً لحياتي وحياة بطانتي، وقبّل الأرض بعدها. هل يمكن أن ألوم واحداً من رجالاتي يبدي تفانياً في الدفاع عن حياتي وحياة خاصتي؟ وهل أرتاب من بدر؟

بعد يومين أتى ابن عامر، والتمس من فائق، صاحب الطراز، أن يَفسح له في الدخول علي. استقبلته في الفصلان، قبالة السطح المُمرد، وبدا لي في حالة من الهلع شديدٍ. قبّل الأرض، ثم نهض وأخبرني أن

بدراً وضع حدّاً لحياته، ثم شفع أنه الأمر المشين في عقيدتنا والساري في عقيدة المجوس. مات بدر إذاً. واستشطت غضباً.. صرخت: «كيف ذلك؟».. أجاب ابن عامر والأسى على وجهه : «خنق نفسه». فعقّبت وقد طار لبّي: «لماذا تركتموه يُدخل حبلاً في محبسه؟»، وردّ ابن عامر دون أن يخالطه اضطراب أنه استعمل تكّة سرواله. لم يبقَ إلا أن أسأل عن جثته، فأجاب ابن عامر بنبرة رتيبة: «دُفنت يا مولاي ولم نُرد أن نزعج سيّدنا».

لم أجد ما أردّ به إلا دعاء المغلوب على أمره، الخاضع لقضاء ربّه، الخانع لما آل إليه أمره، «لا حول ولا قوة إلا بالله».

هل ثمن بلوغي حقيقة نفسي أن ينفلت كل شيء من بين يدي؟ أمرت في طلب جعفر فقال لي قول ابن عامر: خيف على حياتي، وعُزل بدر لاستقصاء الأمر، وخشي بدر أن ينكشف سره فوضع حدّاً لحياته بأنْ خنق نفسه.

كان يمكن أن أستكين لشرح ابن عامر لو تعلّقْ الأمر بشخص آخر. كنت أعرف أن فتيان القصر لم يكونوا يخصّون بدراً بالعطف لمكانته مني، وكنت أتعلق ببدر لأني به وفيت بدَين، واستعدت البُعد الإنساني الذي كان غاض من حياتي، أم تُراه حقاً تحرك فيه شعور الثأر لأهله، مثلما أوحى به ابن عامر وأكّده جعفر؟ استأثر بي الشكّ، وزادني ضنى. أمرت في طلب قائد الحشم الجديد، محمد بن القاسم الذي تولّى الأمر بعد مقتل طلمس، وقال لي ذات الشيء: وضع بدر حدّاً لحياته.

طويت الأمر أو كدت. أردت أن أترحّم على قبره، وصدّني أهل الخدمة عن ذلك، لأن الخليفة لا يذهب لتقديم العزاء ولأن بدراً وضع

حدّاً لحياته ولا تُعرف حقيقة دوافعه. أمرت أن يُتلى القرآن ترحّماً على روح بدر في جناح خدمة الطراز حيث كان يشتغل، وحضرت التلاوة في جمع محدود. وهل قَدر عليّ أن أفقد كل عزيز؟ وهل كان بدر يضمر حسيفة؟ وهل يمكن منذ الآن أن أثق في أحد إن كان بدر ممن لا يوثق؟

غُرتُ في الحزن مرة أخرى. لم أسْلُ عن بدر. كان بهجتي من قتام الحياة والظل الذي أتفيؤه من هجير السلطان. أضحى كل شيء في الزهراء كابياً.. لم أجد العزاء عن بدر إلا في إعتاق العبيد وفكّ رقاب الإماء ورفع ضُر ذوي العُسرة... كنت أريد من ذلك كفّارة لذكرى هذا الفتى الذي بادلني حبّاً بحبّ. وهل يمكن لمن أحبني أن يضمر السوء إلي؟ وهل الحبّ ممّا يَخفى؟ وهل الحقد ممّا لا ينكشف؟ لم أصدّق قط رواية الانتحار، وظلت وفاة بدر لغزاً يؤرقني وجرحاً يؤلمني.. ألم أكن أستطيع أن أصدَّ عنه الموت؟ هل تلاشى سلطاني؟ تُنبئنا صروف الدهر، وقد تكون من خلال أشياء بسيطة، أن شيئاً ما انتهى من سؤددنا، وأن السدى الذي انتسج من سلطاننا أخذ ينحل، وأنّ الذي كانوا عوناً لنا صاروا لنا أسياداً، وأننا لم نعد نمسك بشيء.

ولم أجد العزاء إلا في تلاوة القرآن وأعمال البر..

***

تذكرت عَجُز بيت للمُقنّع الكندي كان حفّظني إياه المؤدِّب عثمان بن نصر رحمه الله، وأنا بعدُ حَدَث: «ولا يسود القوم من يحمل الحقدا».

تذكرته في خريف عمري وقد وعيت معناه. برئت من الغيرة وشُفيت من الحقد، ولم أعد أحمل تَرة لأحد. سعيت أن أتصالح مع من أذنبت في حقهم. كنت كلمت جعفراً في الأمر فأثناني عن السعي إليهم، لأن ليس للخليفة أن يذهب إلى القوم بل همُ القوم يأتون إليه. وهل أنا إلا عبد امتحنه الله بهذا الأمر؟ كنت فيما سلف أُراني مخصوصاً بعناية ربّانية، وموضع تميز خاص، ومذ فقدت ابني عبد الرحمن، أدركت أنّي لا أتميز بشيء عن أي كان. رسّخ رحيل بدر هذا الإحساس. بعثت بفائق إلى باشكوال وقال له قولاً مفاده إن وضعه الطبيعي أن يكون بجانبي لخدمة من اختصه الله بعباده، وردّ باشكوال بكلام متأدِّب أن لا شيء أسمى من خدمة شؤون العباد، وفهمت أن باشكوال يرفض عرضي. شعرت بالعجز. أرسلت له جعفراً وقد قدّرت أن سابق المعرفة بينهما قد يُذوِّب الحواجز وقد

انتفت المنافسة، وبدأه جعفر بالقول إني أعطف عليه، وردّ باشكوال بالقول: «أفِي الله شكٌّ»، بما يفيد أنه كان يهزأ، لأنه كان من مذهب أهل الشك، ثم شفع متحدثاً بنبرة حادة إلى جعفر: «العجز عجزان يا جعفر، التفريط في الأمر وقد أمكن، والسعي وراءه وقد فات. لا يمكن في خريف عمري أن أكون جزءاً من منظومة أعرضت عني. أردتَها لوحدك فلتتحمل تبعاتها لوحدك». ثم تلا البيت الشهير:

وإذا تكونُ كريهةٌ أُدعى لها

وإذا يُحاس الحَيْس يُدعى جُندبُ

أخبرني جعفر بذلك وغلبني الأسى. لماذا تركت باشكوال ينفلت من قبضتي؟ أجّج ذلك من شعوري بالعجز والوحدة.

ثم أقدمت على أمر لم أحدّث به أحداً سوى قائد الحشم الجديد، محمد بن القاسم وقائد البحرية لاتخاذ تدابير الأمن، وهو الذهاب إلى جزيرة ميورقة. كنت أريد اللقاء بهند. أخبرت جعفراً بنيّتي أن أتغيب، وأمرت أن يُبقي الأمر سراً، وأن يباشر أمور تدبير الدولة، وأن يستشير القائد غالباً في القضايا العسكرية، وابن عامر في أمور الشرطة. تمَّ تمويه موكبي في كتيبة للجند، ولم يُرفع علم الخلافة، ولا قُرعت الطبول والدفوف حين خرج موكبي. وصحبتني كتيبة مدرَّبة من الحشم، وأخرى من الطلائع مهّدت السبيل. وبلغتُ ألمرية بعد خمسة أيام، ثم وجدت بها قائد البحرية ابن حُدامس خفرتنا سفنه إلى جزيرة ميورقة.

كنت أشعر بالانقباض كمن سيساق لامتحان. ماذا سأقول لهند؟ وكيف أواجهها؟ وهل ستفهم عني؟ أتيت أطلب الصفح ولا ينبغي أن أبدو كالمستجدي، ولا يسوغ ذلك أمام هند وهي الشموس... ثم إني الخليفة. كم يغري البحر على التملي. هو أشد وحشة من الصحراء، ولذلك ينثني المتأمل في صفحته نحو أعماق ذاته. أبرئتُ حقاً من الهوى؟ ما يضيرني أن تفهم هند ما تشاء إن أنا برئت من شرور نفسي؟ أليس ما أروم هو مصالحة نفسي وذاتها، فما شأني وردّ فعل هند؟

استجممت في اليوم الذي وصلت فيه جزيرة ميورقة. كان السفر أرهقني. في اليوم الموالي أمرت في طلب عامل جزر البليار. استقصيت أحوال الناس وسألته عن خطر الفاطميين. ما كان يهمني لحظتئذٍ هو هند. أظهرتُ وكأنها آخر اهتمامي. سألت العامل وأنا أتأهب أن أصرفه: «أليس عندكم منفية هنا؟»، «بلى يا مولاي»، ردّ العامل ببلادة أو تبلد، لا أدري. «حدّثْني عنها» أمرت. وحدثني عنها. لم يَرد أمر بمنع الزيارات إليها، ولذلك تستقبل كثيراً من الزوار، ولداها من عبد المالك، وأهلها، وثلة من رجالات الدولة من تخلّف بهم الركب، أو أزيحوا من رتبهم. أخبرَني كيف تمضي يومها: تقرأ، تكتب، تطرز، تتجول في الحديقة، وترنو إلى البحر طويلاً..

زرتها في اليوم ذاته بعد الظهر. أُخبرَتْ بالزيارة عند الضحى. لم تحفل بالأمر ولم تتهيأ له مثلما فهمت من تقرير العامل. لما حللتُ بالحديقة المفضية إلى البيت الذي تقيم به، كانت واقفة في انتظاري، ترتدي جُبّة بلا طراز، ووجهاً سافِر

كدأبها، وشعرها مرسل. انحنت وقبّلت الأرض كما تقتضي الطقوس. طمأنني ذلك.. هزُلتْ وبدت عليها معالم الكِبر، في تجاعيد بوجهها، وفي شعيرات بيضاء وخطت شعرها، بيد أن وقفتها ظلت فارعة. كان نظرها حاداً. لم تختفِ معالم جمالها. كان الحزن يَشع من نظرتها. صرفتُ عناصر الحشم، ولم يبقَ إلا القائد محمد بن القاسم بباب بيت هند.

- جئت إليك بعد طول غيبة يا هند، قلت لها، وأنا على عتبة الباب.

- الخليفة في بيته أنّى حلّ وارتحل، ردّت. ثم أردفتْ:

- هلّا تفضل الخليفة بالدخول.

أفسحت لي في غرفة هيّأها رجال الطراز تشرف على حديقة تتوسطها نافورة.

بادرتها وأنا أتأهب للجلوس:

- أتعرفين أن عبد المالك انتقل إلى عفو الله.

ردّت في هدوء وثبات:

- «كُلُّ مَنْ عليها فانٍ». خبرّني ولداي. تغمّده الله بواسع الرحمة.

دعتني للجلوس على ديوان، واتخذتْ كرسياً صغيراً تضاؤلاً. شجّعني ذلك. عقّبتُ:

- أنتِ جزء من بيت الخلافة، شاءت ظروف أن تُبعَدي وآن الأوان كي تعودي حيث ينبغي أن تكوني. جئتك مُحدّثاً إياك بذلك.

ردّت في هدوء:

- إن جئت بصفتك خليفة فسأستمع وسأعقّب بعد أن تنتهي: «سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين»، ولو لم أصِخ لشيء، كما يفعل خُدّامك، وإن أردت أن تستمع إلي، عليك أن تتجرد من صفتك.

- جئت كي أستمع إليك وتستمعين إلي.

- حسناً إذاً، فأنا أتحدث إلى الحَكم لا إلى الخليفة؟

- هو ذاك. الحَكَم يقول لك إنه أذنب في حقك.

- في حقّ كثيرين، في حق عبد المالك، في حقي، وفي حق بسطاء، منهم من تعلم ومنهم من لا تعلم.

- تلك ضريبة السلطان.

- أن تقهروا العباد؟

- ليس من دون جريرة.

- ذلك ما تزعمون.

- قد نغلو في الحكم، ولكن ليس من دون سبب.

- أن تَحُولوا بين المرء ومن يحب، أو ما يحب، أن تقمعوا حريته..؟ تبتغون الناس كأنعام أو كأدوات. لا تقوون على النظر إليهم كأناس يفكرون ويختارون أو يخالفونكم الرأي. الويل إن التقت حيوات المتميزين بحياتكم. عشرون سنة من حياتي انصرمت رتيبة، تتوالى الأيام فيها بلا نكهة، وتتردد بلا أنيس، سوى صوت ماء نافورة، لا لشيء إلا لأني اقترنت بالبيت الخلافي بأمر من الخليفة، وأمر أن يضع حدّاً لحياتي الزوجية، ثم حكم علي بالنفي وحرمني من تنشئة ابنَيْ، ومن وداع والدَي الوداع الأخير. لم أشيّعهما إلى مثواهما الأخير..

هل تدرك يا حَكم أن يُحرم المرء مما يصوغ الحياة، من الأمل، ومن الذكرى، ومن الحب. من أجمل الأشياء في الحياة؟

- جئت كي نطوي الصفحة.

- كي تبرأ من تبكيت الضمير. هناك صفحات لا تُطوى..

- مهما يكن من أمر، فليس هناك عقاب من دون ذنب؟

- أنا لم أختر عبد المالك، بل اختاره أبوك أو الخليفة لأسباب أجهلها، ولم يكن لوالديَّ رحمهما الله، وهما مرتبطان بالبيت الخلافي أن يقفا ضدّ إرادة الخليفة.. لعلّ ما يخفف لوعتي أن عبد المالك أحبني. كان من العسير يا حَكَم أن أحب شخصاً رصيده في الحياة أنه وُلد أميراً قد يتاح له أن يخرج من طوقه كي يصبح إنساناً، ولم أعرف واحداً من البيت الخلافي تجرَّد من طقوسه ومراسمه ووضعه كي يعانق الحياة، كي ينغمر في أتونها، كي يستجلي أسرارها، ويتولى بخيباتها أو ينتزع نتاجها بالمغامرة والكد والكدح.. أطفال مدللون يحبون من يجاريهم ويُربّت عليهم، هؤلاء من تسمونهم بمحبي جنابكم المنيف.. ويدسون لكم السم في الدسم، في نهاية المطاف.

لم أجد ما أرد. توقفتْ للحظة، ثم فاجأتني بالحديث عن ابني عبد الرحمن:

- آسفة، لم أعزّك في ابنك عبد الرحمن.

- لا رادّ لقضاء الله.

- إن كان ذلك مما قد يخفف من لوعتك.

وساد بيننا صمت قطعتُه بالقول:

- جئت يا هند كي نطوي الصفحة. جئت ألتمس الصفح.

- جئتَ كي تكسر المرآة التي قد تُظهر حقيقتك. أنا لم أعد امرأة يا حكم. العمر تولى، وأنوثتي عصفت بها السنون ومحقتها المرارة، وحياتي أضحت كشجرة بلا رُواء. أنا أضحيت فكرة. فكرة مما تسترون عنه، أنتم أصحاب الذؤابة العليا والعلية من القوم والمتحكمون في الرقاب والمصائر. هي هذه الفكرة التي تريد أن تجتث، كي تنام قرير النفس، مطمئن البال.. نعم، أشعر أنك تألم وتريد أن تمحق مصدر الألم أو على الأقل أن تخفف منه..

قلت والغضب يتطاير مني:

- أنا أسمى من ذلك، وأنت دون ما تزعمين.

- لم تتجرد من وضعك يا حَكَم... تجردت ظاهرياً، وصَعْبٌ على من درج على الحظوة منذ نعومة أظافره أن يتصرف كإنسان، كإنسان عادي. كإنسان قادر أن يستمع إلى الآخر، ويرى نفسه في مرآة الآخر.

لم أشعر وقد استشاط غضبي أن صحت:

- بأي حق تنتصبين ضميراً. ليس من كانت سيرته من دون جريرة أن ينتصب ضميراً.

- ألأني أحببتُ؟ وهل هو إثم؟ ولنفترض ذلك، أجزاؤه أن أُحرم الحياة، أو أعيشها كما لو أني بضاعة أو تحفة لا غير؟ كانت لعبد المالك محظيات وجواري وقيْنات، وكنت عنصراً للزينة من هذا العقد من النساء. لم يُقدّر الزواج حقّ قدره. طلبت الانفصال منه قبل أن أنجب منه، وفي الأخير كففت عن الارتباط بشخص لا يدرك ما الحياة وما الزواج، كي أخلص

لرجل أحببته وأحبني ويدرك كنه الحياة. وتعرف الشخص الذي أحببت، ولا حاجة إلى أن أذكر لك اسمه.. أشيع عني أني لعوب، أهفو للرجال، وأنتقل من واحد إلى آخر. افتراء. لم يدرك عبد المالك أنه يحبني إلا حين أُمر بالفراق مني. آنذاك تبيَّن أنه أضاع شيئاً كان ملكاً له ولم يُقدّر قيمته. لا تستطيع أن ترى الحقيقة يا حكَم، رغم غزارة معرفتك وسعة ثقافتك.. حتى زهدك الأخير، وحدبك على الضعفاء، هو للتستر عن حقيقتك. لا تختلف عن كل من وُلد وأنيل الحظوة من غير مجد. أنت أكثر معرفة، ولكنك في العمق لا تختلف عمن وُلدوا مسنودين بنسب ومَحْتد.

- لم آتِ إلى هنا كي تُجْرين محاكمة عليّ. لقد تجردت من وضعي كي نتحدث على السجية، أو إن تشائين بقلب مفتوح لا أن تنفثين سمّك..

- قتلك لابن حمديس هل هو سم أنفثه؟ لِم عجزت أن تمسَّ جعفراً بسوء وهو الذي كان وراء تمرد ابن حمديس؟ كان أحرى بك أن تُجري العقاب على من كان وراء تمرد ابن حمديس؟ ولكنك لا تقدر على شيء من دون جعفر. العبد الذي أضحى سيداً ويخدعك بلعب دور العبد كلما مثُل بين يديك بتقبيل الأرض والتضرع إليك. تحاملك على باشكوال، هل هو اختلاق؟ غضبك على خدمك وإبعادك لهم، وتجريدهم من ممتلكاتهم، ثم صفحك عنهم وردّهم ثم إبعادهم، هل تُقدِّر تبعات تلك النزوات؟ يمكن أن أتلو عليك عدداً مما خطّه خدامك ومؤرِّخو حضرتك، حتى لا تتهمني بالافتراء

والاختلاق..

هالني أنها كانت مطّلعة على أمر البيت الخلافي وأسراره رغم أنها تعيش بالمنفى، وفهمت أنها كانت تستقي أخبارها من الزيارات التي ترِدها. عقّبتُ:

- لا جدوى من الكلام يا هند، أنت حبيسة أفكار مسبقة. سوف آمر بإطلاق سراحك وعودتك لقرطبة كي تعيشي بها مع ولديك، وآمر بجراية لك وتعويض عمّا ضاع منك.

- هل يردّ لي ذلك شبابي ويعيد إلي حلمي، يا حَكم؟ تريد أن تُسكّن لذعات ضميرك لا غير. ثم إنني ارتبطت بهذا المكان. أنا مسرورة أنك أتيت.. تؤاخذنني على أني خنت عبد المالك، ومن يؤاخذ صُبح؟

مادت بي الأرض، كما لو أن نصلاً انغرس في قلبي.. كدت ألطمها. تماسكت ثم صحت:

- اخسئي يا وقحة.

ردّت في هدوء مثير:

- تكبدتَ المشاق يا حَكَم لا لكي تسمع حديثاً مخملياً، بل لتعرف الحقيقة. الكل يعرف قصة ابن عامر مع صُبح إلا أنت.. لا تحسبنَّ أنك على شيء يا حكم. أنت سجين منظومة. وجدتَ فيها ضالتك أول الأمر لأنك تأمر فتُطاع، وما لبثت المنظومة أن التفّت حولك، كحبل، أو كأفعى على الأصح.. وها أنت ذا تختنق.. أصبحت عاجزاً. نعم، كل شيء يُقرر باسمك، ويُنفَّذ باسمك، وأنت آخر من يعلم.

لم أثبت. نهضتُ وغادرت الغرفة. ينبغي إسكات هند.

كان قائد الحشم على الباب. أرسلت له إشارة برأسي.

عدت إلى الجناح المُعَدَّ لي. أمرت بتهييء شراع السفن. كنت أذرع فضاء الجناح المخصص لي جيئة وذهاباً، في حالة غيظ وحنق. كانت الأرض تمور في ذهني. ناديت على فائق كي نتأهب للمغادرة. بادرني قائد الحشم في الحديقة المقابلة لإقامتي وخرير ساقية يتخللها. همس لي بشيء، ليقول لي إن المُتعَيّن أُنْجز. كانت كناية ليخبرني بأن هند قد قُطع رأسها ويسأل أين ستدفن. أمرت أن تُدفن في الجزيرة التي أحبت، وأن يتولى الغسل والدفن نساء الخدمة وعناصر الطراز، وألا يقرب أحد جثتها، وأن يحضّر العامل مراسم الجنازة، وأعيان الجزيرة ويُشاع أنها ماتت ميتة طبيعية، وتُجمع أغراضها وتسلَّم لفتى الخِصْيان فائق. لم تعد لي من فكرة سوى الثأر من ابن عامر، ابن عامر الذي لوّث شرفي ودنّس سلالتي. ومن صبح. صبح الآثمة، صبح الفاجرة.

لم أفكر طوال الإبحار إلا في الثأر. لم أكن أرى زرقة البحر، بل حمرة الدماء. كنت متعطشاً لحزّ رؤوس من ثلموا شرفي وتجرؤوا على مكانتي. لم يكن حزّ الرؤوس يكفي، بل التمثيل بالمتورطين والضالعين والمتآمرين... بابن عامر وآل ابن عامر، بصُبح... بل بجعفر. حتى جعفر تستَّر عن أشياء. كان على علم ولم يخبرني، بل هو أصل المأساة، هو الذي أتى بابن عامر وامتدحه وساعد في ارتقائه.

كان القمر يبعث ضياءه أثناء الليل ونوره يسطع على صفحة البحر، ويتلألأ بريقه مع حركات الموج. كان يهزأ مني..

مَن أنا أمام عظمة الكون؟ من أنا أمام صولة الزمن؟ وغُرت إلى مخدعي. جفاني النوم.. اختلطت الرؤى والتوهمات. بدا لي وكأن هند لم توجد قط. هند حلم صبا. أمل في شرخ الشباب وعبرة في خريف العمر. هند فكرة. هند غواية وتريد أن تنتصب ضميراً. أنا من اختلق هند. لا ينبغي أن أتأذى من قولها، لأنها لم توجد، ولا آسى أني قتلتها لأنها لم توجد. ليست يداي ملطختين بالدماء. لم أبرح الزهراء، ولم أعبر إلى ميورقة. كل الذي تبدّى لي رئي. هلوسة. لا يمكن لهند أن تكون ضميراً.. فكرة مؤلمة يمتزج فيها الحنين إلى الشباب والحسرة على ما فات. ثم تغشّاني النوم، وفجأة استفقت على كابوس... هند وبدر. هند تقدم لي العزاء، وبدر يصرخ، السم السم.. أيكون أن ابني قُتل مسموماً، أيكون أنْ نطق بدر السين صاداً؟ أيكون أن بدراً قُتل لأنه عرف جلية الأمر، وكان يُخشى أن يخبرني بالحقيقة؟ كيف يمكن أن أرتاب من بدر؟ مَن قتل بدراً؟ ليس ابن عامر وحده؟ ومن قتل ابني؟ ولِم قُتل ابني؟ وهل صبح ضالعة في الجريمة؟ اعتدلت في الفراش. تنفست بعمق. ارتشفت من قدح الماء. تناهى إلي صوت الرياس والبحّارة وهم يُغنّون ويمرحون.. هم خارج ما يعتريني. هم أقرب إلى الحياة. وما السلطان إن يصرفك عن الحياة؟... أزحت ستائر النافذة فتراءى لي القمر. نهضت وخرجت من غرفتي إلى سطح السفينة. كان القمر أنيسي. كان كمن ينتظرني للحديث إلي. لا. كيف أستكين لكابوس؟ لا يمكن أن أرضخ للغضب. كيف أواجه أخطاراً محدقة من كل صوب إن أضحت الأندلس

حلبة للدماء؟ اغتنم المسيحيون ذهاب غالب لعدوة المغرب ليتحرشوا بنا، واحتلّوا قلاعاً في ثغور الشمال. أفلا نُمكّنهم من أمرنا إن أضحت الأندلس ساحة للثأر والاقتتال بين الطوائف. وما كل هذا الانتصار الذي أحرزت على گنون إن أنا أضعفت الدولة؟ أليست هي دعوة للفاطميين أن يقطفوا ما عجزوا عليه بالحرب والمكيدة؟ مصلحة الدولة فوق كل اعتبار. من حق الحَكم أن يغضب ويفكر في الثأر، أما الخليفة فلا. وهل سيعيد لي الثأر ابني عبد الرحمن أو بدراً؟ ألن يُقوّض قتل ابن عامر الخلافة؟ ومن يتولى أمر هشام وهو بعدُ غلام؟ ابن عامر هو الرجل الذي طعنني من خلف، وهو الرجل الوحيد من يستطيع أن يحمي هيبة الدولة. ثم أخذت أرى الأمور بمنظار آخر.. وشملتني السكينة. لقد قمت بواجبي جهد ما أستطيع ولا يمكن أن أقف في وجه الأقدار.. أو مشيئة الله، أو حركة التاريخ كما كان باشكوال يقول. لا يمكن التعلل بـ«لو». لو تفسد العمل.. ينبغي قبول الأمر كما هو.

حينما كانت السفينة على مشارف ألمرية، أمرت صاحب الطراز بأن ينقل أمري لقائد البحرية كي تخصص الرعية استقبالاً حاشداً لي، وأن أتفقد القلعة، وأن أجتمع بالمرابطين القاعدين للجهاد.

أنساني وجودي مع الجند كل ما استبدَّ بي من هواجس وما جثم عليها من أحزان. أنساني هنداً وأقوال هند أو تخرصاتها، لا أدري. سمعت نداء الجند ومعه نداء الرعية تهتف بطول عمر الخليفة الحَكم، وولي عهده هشام. هو ذا

المهم. هم في غفلة من الدسائس ومكائد السلطان. هم في منأى من ذلك.. فرحتهم أن التقَوا بي وقبّلوا يدي.. لم يقبّلوا يد الحَكم ولكن الخليفة، خليفة المسلمين، ناصر بيضة الدين، والمدافع عن حوزة الإسلام، وحامي الذِّمار وحامل راية أهل السنّة والجماعة، وحصن بلاد الغرب الإسلامي قاطبة ورمز فردوسها الذي به تفخر، الأندلس الفيحاء.

ثم امتطيت فرسي وسط هتاف الجند وأنا أحيّي بيدي.. هو ذا المهم. هند، ابن عامر، جعفر، أدوات، والأساس هو العقد بين الخليفة والرعية. ذهب عني الانقباض. الموثق الذي يربطني برعيتي بدّد ما اعتراني من كَدَر. حتى إذا بلغت مستوى الحامّة شعرت بمغص، ثم انتقل إلى تكلس يدي. ناديت على فائق. ولم أعد أذكر شيئاً. لم أستفق إلا بعد أسبوع وأنا في مَحفّة تحملني إلى قرطبة، ونصفي الأيسر مشلول.. ومنذ ذلك التاريخ وأنا طريح الفراش. أقعدني الفالج يا زيري. كان الألم عميقاً وكنت أداريه. تغلبت عليه ظاهرياً وكان ينخرني من الأحشاء حتى أتى علي وحكم علي بالشلل.

سنتمم الحديث في قصر قرطبة. البرد اشتد علي هنا بمُنية الناعورة، والأطباء نصحوني بالانتقال إلى قصر قرطبة الدافئ..

***

غبتُ عن الأنظار مذ عدت من جزيرة مايورقة. لم يفسح الفَتيان جوذر وفائق لأيّ أن يزورني. حتى لصُبح. أذنتُ لابن عامر في نهاية المطاف لأنظر معه في شؤون الدولة. أخبرني بانتصار جيوشنا على المسيحيين المتربصين واستعادتنا لقلعة غرماج... أثلج ذلك صدري. ثم أذنت لصبح بعدها، وكلمتها كأني لا أعلم، وأوصيتها خيراً بهشام. بكت ودعت لي بطول العمر.. كنت أشعر أنها تستعجل رحيلي كي تتولى الأمر من وراء هشام، وبدعم من ابن عامر.

صرت أتضايق من جعفر... أضحى كفاكهة تسنّت. انتهى عهده. كنت أستمع إليه لأني أعرف غيرته على الخلافة، ولكن أمور الدولة تطورت والظروف تغيرت ويلزمها راعٍ آخر، بقواعد جديدة. كنت أختلي بابن عامر لأنظر وإياه في أمور الدولة.. انتزعت منه الالتزام بعدم المساس بالخلافة. يدرك بأنه الرجل القوي، ولم يعد يتحرز من إبراز قوته. أحتفظُ بجعفر كي لا أترك لابن عامر الحبل على الغارب. حتى لا يَحسبنَّ أنه له اليد الطولى من غير رادع.

قلّب فائق أغراض هند ووجد فيها أوراقاً، منها ما كتبته، ومنها ما كان يرسله إليها باشكوال. كان باشكوال حبَّها الذي لم تسفر عنه. هو الأمر الذي سيزيد الأمور تعقيداً. ولا شك أن لباشكوال مراسلات من هند يحتفظ بها ولا يمكنني الوصول إليها.. أمرت فائقاً بأن يحرق كل شيء. رسائل باشكوال إليها، وأوراقها التي كان تخط فيها أحزانها وتنظم فيه أشعارها.. قرأ لي بعضاً منها ووجدت في ثناياها روحاً شاعرة وإن لم تكن تلتزم بالعَروض أو قواعد اللغة العربية.

اعتراني الندم أني قتلت هنداً. وماذا يفيد أن أقتل هنداً وأترك باشكوال؟ قتلت هنداً لأنها تعرف، كي يُقبَر السر معها. وباشكوال يعرف كذلك. سينتقل الغيظ إلى باشكوال الذي لن يغفر مقتل هند. ستسكنه روح هند.. لم يبقَ لي من خيار سوى أن أقتل باشكوال.. لم يكن يعرف بيتنا سطحياً فقط، بل تغلغل إليه من خلال هند.. هل سأنهي مساري بالقتل أنا الذي راجعت نفسي وزهدت في الحياة؟ ولأي غاية سأقتله؟ من أجل مآل لا أتحكم فيه؟ لفائدة جعفر أو ابن عامر؟ هما من سيستفيد من إخلاء باشكوال السبيل.. سيبقى باشكوال في المنظومة. لا أدري كيف، ليس له جند، ولا عصبية، ولكنه سيبقى في المعادلة، وينبغي أن يبقى، كي يبعثر اللعبة.. ولربما، على المدى البعيد قد يصبح ابنَ حفصون مثلما قدّرت مازحاً، ابن حفصون من نوع آخر.. لم يعد ممكناً أن أستميل باشكوال بعد مقتل هند. أضحى مناوئاً لأمر بني أمية وشأن العرب، وسيصبح معارضاً حين يعلم بمقتل هند.

كانت هند مسكونة به.. فهمت ذلك بعد لأي. طريقة تفكيرها مستقاة من باشكوال.. تحليلها البارد، عمقها.. وكان يحبها كذلك. رفضه لعرضي، أليس مرده أني نفيت محبوبته؟ حرمته الأمل، وصددته عمن أحب.

يتراءى لي في المنام ثعبان يزحف نحوي، ثم يتوقف كما لو هو يهزأ مني، ويرفع رأسه ثم يعبث بلسانه كذلك الذي كان سيلدغني في صحراء عدوة المغرب، وأجدني هذه المرة أعزل. أعرف أن باشكوال لن ينبري هذه المرة ليقتله.. البارحة رأيت في المنام ثعابين تتهددني من كل حدب وصوب، تحيط بي ولا تقربني كأنها غير مستعجلة أن تلدغني. لم يعد الزمن حليفي.

بقيت لي ورقة ألعبها.. غالب. القائد الأعلى للجند وقائد حامية مدينة سالم. لن يبقى الصراع مفتوحاً ما بين جعفر وابن عامر، ولكن سيدخله طرف ثالث، ما قد يخدم الخلافة في نهاية المطاف. ذهب عهد جعفر. كان جعفر مفيداً وقد كانت القواعد مستنّة والطريقة ممهدة، أما الآن فالقواعد تغيّرت، والسبيل غير واضحة المعالم، ولم يعد مكان لجعفر. لم يرد جعفر أن يدرك ذلك، ويُعوّل على شبكته التي أرساها من أهله و ذويه ومواليه.. لم أقف ضدّ مسار ابن عامر كي أكون منسجماً مع مسيرة التاريخ، أو على الأصح لم يعد الأمر ممكناً. هو يستجيب والظرف أكثر مما يستجيب جعفر. له ما ليس لجعفر، صغر السن والتفكير الرصين ومعرفة بالواقع وتمرُّس بالحرب والإدارة.. ثم صُبح. صُبح عنصر مهم، على الأقل مرحلياً. وصُبح حليف لا مشروط

لابن عامر.. نعم انتزعتُ من ابن عامر الالتزام على البيعة لهشام، وعدم الانقلاب على الخلافة. هو ذا الأهم. المهم هو المؤسسة.

ولكن لا شيء سيستقيم من دون غالب، ولذلك قررت أن أرقّيَه. كان ذلك آخر قرار اتخذته وخرجت فيه على الملأ في حفل بهيج، بقصر قرطبة، وتسلّم غالب غمدين من ولي العهد هشام، بأمر مني، وسمّيت غالباً بذي السيفين. لم أردك أن تحضر الحفل يا زيري كي لا يراك رجالات الدولة ويعرفون أمرك. يكفي أن يعرفك الفتيان جوذر وفائق، وهما لن يذهبا ضدّ إرادتي.. سيحميانك، أو على الأقل لن يمسّاك بأذى.. لا ينبغي لعيون ابن عامر أن ترصدك، ولا لجعفر أن يعرف بأمرك.. سِرْ في مناكب الأندلس، أو في غيرها، إلى أن تحين الساعة التي تُقَدّر فيها لهذا الحديث أن يرى النور.

هل تريد أن أُسِرّ لك بما يختلج في صدري؟ إنها النهاية.. حتى ابن عامر، لو فرضنا جدلاً أنه سيوطد شؤون الدولة، سيكون ذلك بتكلفة باهظة، لأنه ليس له مشروعية. سيحكم بيد من حديد، ولكن بَطْشَ اليد الحديدية لا يثبت لمجرى التاريخ.. يمكن أن يرجئ حكم التاريخ. انظرْ إلى الأخطار المُحْدِقة بنا، الفاطميون، الممالك النصرانية، المُولّدون من الداخل... حتّام سيثبت الفردوس..؟ السلطان لا يوجد لذاته، ولكن لغاية. يمكن لابن عامر أن يتولى الرقاب، ولكنه لن يذهب بعيداً من دون رؤية. ليس له رؤية ولا تصور للأندلس، وهذا الذي يقض مضجعي.

بقي أمل واحد، هو أن تتحول الأندلس إلى فكرة، ولذلك

أردتك مُدوّناً لهذا الحديث.. قد يعصف باشكوال بالنموذج الذي ساد كي يقيم نموذجاً مضاداً. لا فائدة من قتله إن كان سيبعث يوماً ما نموذج الأندلس، ولو من منظاره. ربما. لست أدري، يمكنك أن تستميله.. كيف؟ لا أدري؟ يمكنك أن تفعل بعد أن أنتقل إلى العالم الآخر.

استرجعت عافيتي أيها الفتى، ويزعم الحكماء أنْ قبل الرحيل تنبعث منا هبّة من حياة.. هي النهاية. كنت أجسِّد المنظومة، ولا أدري أي مآل ستؤول إليه المنظومة بعد إذ أرحل. سيبقى صداها ليس إلا. حتّام؟ أريدك أن تغادر قرطبة في أقرب حين.. لا أريدك أن تحضر جنازتي..

جوذر، افتح النوافذ، أريد للنور أن يغشى المكان..

فائق، نادِ على الحكيم شرحبيل.

أستودعك الله يا فتى.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. صدق الله العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

الرباط 27 فبراير 2016/ طنجة 11 أغسطس 2016

حسن أوريد

ربيع قرطبة

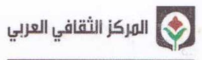
«سَوِّ الفراش يا جوذر قُبالة جبل العروس وأدِرْني في رفقٍ كي أرنوَ إليه. أريدُ أن أنظرَ إلى قِممه المجلّلة بالثلج. أريدُ أن أحمل في ذهني صورته إلى العالم الآخر. لستُ أدري أيُقدَّر لي أن أراه ثانية أخرى... بهجة النظر هي ما تبقّى لي. لستُ أشعر بشيء، لا دفء ولا برد. لا حُزن ولا جذَل، لا حسرة ولا أمل. أراكَ تُثقلني بالدِّثار. سيّان يا جوذر هذا الغطاء.. وأقدّر أن البرد لا يزال يرين على قرطبة، رغم براعم الشجر و زقزقة العصافير ورغم ضياء الشمس.. هو الربيع، ربيع قرطبة، ولكني لا أشعر بشيء. ما أخشاه أن يكون الشعور المستتر في وجداني هو خريف الأندلس... لستُ أخشى خريفي يا جوذر، فغداً سألقى الله وأخبت إليه. ربّاه، لقد حملتُ الأمانة وسعيتُ جهدي أن أوفيَها حقها، فلا تؤاخذني، ربِّي، فيما لا طاقة لي به. ما أخشاه هو انطفاء هذا الوهج من نور الأندلس والذي، شهد الله، جاهدتُ في حمله».



حسن أوريد، كاتب وأديب من المغرب. حائز على جائزة بوشكين للآداب لسنة 2015 من اتحاد كتّاب روسيا. من أعماله الأدبية: الموريسكي، وسيرة حمار، والأجمة.

لوحة الغلاف للفنان إيدوين لورد ويكس


ISBN 978-9953-68-858-9


المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com